قصص

شلة الصعاليك

محمد الهادي المجدوب

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

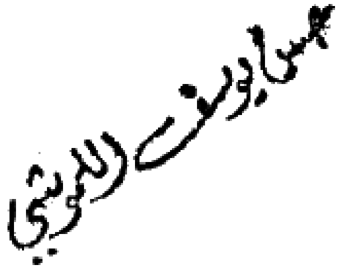

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

قصص

شلة الصعاليك

محمد الهادي المجدوب

قصص

شلة الصعاليك

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

محمد الهادي المجدوب

شلة الصعاليك

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/323

رقم الإيداع الدولي: 9789959-25-944-8

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

الإهداء

إلى شلة البرتقال
التي عاشرت الوادي
والسيل والزمن العفيف
، ورسمت خطواتها
الصغيرة فوق جسر
مازالت بصماتها على
حديده ..

محمد

مارس 2000 م .

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مطلع

حكاياتي هذه هي سرد لبعض ما اختزلته الذاكرة من ذكرياتنا الوديعة خلال الفترة الممتدة من سنة 1972 م - 1978 م . بريئة حالمة تمتلئ بالشجن وتغوص عبر الحنين ، وتعبُر بي أنا ربما وحدي ربما معي عند أطراف الأمل فتعب من الألق ما يسد الرمق ويوسد الجسد فراشاً رطباً من الطمأنينة فيرقد مرتاح الضمير لم يحتسى من الموبقات ولم يكتسي حلة من الفوضى والأجرام .. هذه بعضاً منها ضمنتها كتابي الصغير هذا فقط لأتذكر واستمتع ، وقد يستمتع بها غيري وغير أفراد الشلة الذين ينتظرونها بعضهم أو كلهم .

حاولت أن أكتب بعضاً من حكايات طفولتي وطفولة من شاركوني تلك المغامرات الجميلة والشيقة ..

مازال في جعبتي الكثير لأكتبه لو اسعفنا العمر وكانت لنا بقية قادرة على أن تمنحني بعضاً من قوة أستطيع من خلالها أن أسطر المزيد من طراوة عيدان الورد وغناء عطره الأخاذ واشراقة البهجة في القلوب الطرية التي منحت نفسها بعض رقته ؛ تلك القلوب التي كانت تنبض بالفرح رغم بعض الألم الذي يناوشها بين الفينة والأخرى مثل وخز الشوك عذباً وكنا نراه مميتاً . هي الطفولة يا سادتي وبواكر الشباب الغض بكل ما فيها من مرح ووجع وتسرع وأمل وشقاوة ..

كان لابد لي أن أكتب هذه المقدمة البسيطة التي لا تقول غير

أشياء خاصة هي ملاذ لأصحابها عبر سنوات دافئة من أطوارهم الأولى لا تقصد أحداً ولا تختلق شيئاً غريباً وليس في نيتها إلا أن تكون بسيطة ووديعة مثل أورق العنب أو أغصان شجر اليمون والوان ثمرة البرتقال لا أكثر من ذلك ولا اقل عبر سماحة لا يعكر صفوها التملق ، وهي تتباهى بنفسها أحيانا لأنها تكاد أن تكون قريبة الشبه بكل طفولات الآخرين لأننا من نفس البيئة ولنا نفس الراغبات التي تمتشق بالأمل سلماً من ياسمين ، هي هي تقريباً ، كما وفينا نفس الحنين ؛ هو ذاته الذي ولد من تراب الأرض التي ترعرعنا فيها وبها ، عشقناها وأحببناها كلنا بسمائها وضياءها ومياهها وشمسها وظلها وظلالها وبردها وحرها وبحرها .. بنهارها وليلها ووردها وشوكها والشجن الذي يملأ أفئدتنا حباً لتقاليدنا وماضينا وعاداتنا الباسمة والرضى الذي يبلسم القلوب قناعة وامتنانا ..

لذلك هي تقربنا ولا تبعدنا تجمعنا ولا تفرقنا لأننا من نفس الطينة الليبية المباركة .

محمد الهادي المجدوب

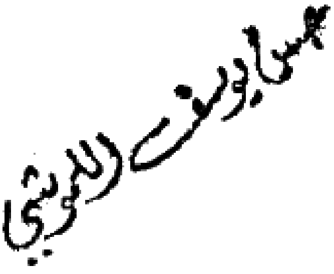

الوادي

بكيت عند الجدار القصير المعزول والمنبوذ عند حافة الطريق الأسفلتي القديم وحيداً مثلي ، كان يقبع تحت الشجرة يندب حظه اللعين .. أما أنا فلم يحن أوان الجلَد .. فقد بكيت بكيت ثم لوحت بيدي وفي القلب غصة ويأس ؛ أن (طز) .. تمددت فوق الأريكة الصلدة التي تخصني وحدي كانت من الإسمنت وكانت خشنة ومتعاطفة .. أليست متعاطفة وقد احتضنت جسدي المنهك المجلود بخوفه وانتظاره ؟!

المرارة تطفح من فوقي ومن تحتي ومن بين شقوق السور الكالح الذي يحتضن تعاستي ..

هلم إليَ أيها الصبر فليس لي غيرك بعد اليوم .وإن كنت لا أحبك ، ولكن ما حيلتي وقد قسم ظهري الانتظار الممل والرجاء البعيد وحلم تنطط أمامي مثل كرة من خيش وقعت في بئر مهجورة .. ثم استقرت في الآسن .

نظرت إلى السماء .. نظرت إليها بعينين دامعتين .علها .. أو لعلها ! وسألتها : مرة . مرتان . خمس مرات .عشرون . مائة . ألف .. هل يُكتب لي اجتياز المرحلة على خير وسلام أم مقدر لي الزحف على بطني وركبتاي ترتعدان من أجل ذلك ، مثل أمس و أول أمس و أول أول أمس . من زمن بعيد يرتعد بي ، لم تجب كعادتها ! ومتى

كانت السماء تجيب أمثالنا من الحمقى أنا لست (تولستوي) الأديب ولا(محمد على باشا) الأريب بمولا (شمشون) الصنديد ، ولست ذاك الأعرج (تيمور لنك) الرهيب ، ولا حتى (قرقوش) العجيب ، ، كما أني لست (جحا) الساخر ، ولا (ثابت بن قرة) الفلكي ، ولا (عباس ابن فرناس) الطائر، ولا (بشار ابن برد) الشاعر ، ولست ولست ولست فهل تجيبني السماء أو تلتفت إليّ حتى وهي لا تراني إلا قزما يزحف كالدودة فوق وجه الأرض ، وأكثر الأحيان تحتها أو صعلوكاً يحتسي مرارة فشله ويتسكع في مسارب الفقراء والصعاليك والمنبوذين ..

« الامتحان يا ولدي . الامتحان يا صغيري . الامتحان يا ولد الكلب .. ما زلت تلهو وتلعب ، والناس تجري ولا تدري .. لو كان في الكرة خير لو كانت تنفع لكان أبوك صار باشا ، وقد كانت حبه وشغله وصاحبته وولده .. لم تكن أمي المسكينة تدري أن من أمتهن الكرة صار في الأعالِ ، ومن لم يصر كأبي فهو أما منحوس منحوس سيء الطالع أو أنه لا يعرف من أين توكل الكتف .. هي الوحيدة ؛ هذه الكرة اللعينة التي تصل بالمرء وفي سرعة صاروخ بر جو إلى النجاح والغنى والفرح والشهرة جميعهم في سلة واحدة يصيبها ينالها يحصل عليها ثم يفترسها ذاك الفتى المحظوظ ربما من ركله وحيدة حاسمة تصيب الهدف ... لم تكن غير هذه الكتلة الإسمنتية التي كانت مهمتها الأكبر في ما أحسب هي التخفيف عني والحدب عليّ ، كانت أكثر وداً من السماء والأرض والطريق المسفلت وأبي وأمي وأولاد الجيران .. ومعلم الجغرافيا ـ الذي ضربني أربعين جلدة من

عصى خشب الزيتون على يدي الباردة ، فقط لأني غبت ولم أحضر امتحانه ، وفقط أيضاً لأني كنت يومها في غرفة العمليات

بالمستشفى المركزي لاستئصال الزائدة الدودية التي كادت تنفجر ثم اصير أنا المتيم بالروابي في خبر كان أنا وبطني وزماني وقدمي المتفجرة بالموهبة .. كانت شاهدة ولا زالت وستبقى ما بقى الوادي حاجزاً للمياه التي يمكن أن يخطر في بالها الخروج عن مسارها والتطاول إلى أراضي الناس وطرقاتهم ومسارب عيشهم ، وهذا في ما أرى تحصيل حاصل لوجودها هناك .. أما الوادي فشيء آخر ، هذا الكائن الذي طالما تمرغت فوق رماله ، وخضت في طينه ، ولعبت بين حجارته ..

" كان صديقي الذي أجد الراحة أجد السلوى والسكينة في حضنه.. "

" الوادي !؟ حسبت أن البحر كان الصديق الأوحد ؟ " هكذا قالت الشجرة التي كنت أستظل تحتها متوسد ترابها الخشن والطري الرطب .. فرفعت عيني إليها قائلاً في هدوء الحالم :

" والوادي أيضاً صديق صدوق . "

" أما أنا فأخافه لأنه مدمر ، ولا صديق له أبداً في كل ما مر من عصور .. أنت لا تعرفه مثلي .. ألم تفكر في مصادقة البراكين ؟ "

" ليس عندنا براكين . "

" هذا من حسن الطالع ! " هكذا قالت الشجرة التي تعشق الروابي .

" لم أفهم لماذا يخاف الناس والشجر والحيوان ، الوديان وهي مسالمة وإن غضبت أو ثارت فمرة أو مرتين في العام .. أو مرة أو مرتين في الدهر كله بينما الناس الذين يخافونها هم من يجدر بنا أن نخشاهم ، أولئك البلهاء رفقاء ابليس الرجيم لهم رجسه وعليهم عباءته .. الحقد لهم مهنة والسخط صفة والخطيئة تكسو البدن .. وإن لم يجدوا فأنفسهم وعليها يقع الطغيان .

يومها دخنت ربع علبة من السجائر نوع (دنهل) وربع آخر نوع (كنت) ، وتركت الباقي في ركن ركين لما يمكن أن يحدث عند انعطاف النهار حيث يجد الغروب يتربص فينهش من لحمه المر ويتجرع من دمه الحامض قبل أن يفتته ويبدده ويحرق آخر صورة من صوره التي أنهكها الصراع والتجوال خلف متاهة الزمان المكابر ، والدك على الأرصفة في طيش .

كنت في انتظار رفيقين لي سوف يأتيان ما في ذلك شك ، وفي جعبة كل منهما كلام .. وفي جعبة كل منهما تدبير.. وفي جعبة كل منهما خبر ..أيمكن أن يكون خبر موتي في فم أحدهما ؟!

الفشل عند الصدمة الأولى أعني الموت .. أليس الفشل كالموت ؟ ثم تأتي المرارة .. آه تلك الحرقة جارفة تنهش نخاع العظم ، تأكلك من داخل الداخل فتتصدع وتتمزق وتتفتت نتفاً تغلي في ذاتك كالجمر ، ومن بعدها السخرية فالضحك ثم يأتي الغليان بالشتائم عندها ماذا يبقى للإنسان ؟ يصبح كالثوار الهائج بلا عقل ولا تدبر .. بعدها ..هه . ليست نهاية الكون .. (طز) مرة أخرى (طز) في نهاية

المطاف وفي بدايته ، وفي الباقي وفي الآتي وفي كشك العريف الذي يرقب الطريق المليء بالشوك المليء بالحقد والزلط والمزالق ، كانوا يسمونها ؛ بوابة ! يا له من عسف يسد مجرى الوادي ويخنق الأمكنة .. شيء من الواسطة ، وشيء من الرشوة .. وحظ وكره وعجز وضياع ، ميؤوسا من بقائه عند حد الصبر أو عند حد الرغبة ، الاحتفاء قد يلون المشهد وقت قصير مستقطع من ملحمة الشقاء المبلطة بالمآسي إلى جانب العمر المتآكل .. ها قد اصبحوا هناك عند مرمى نظري الآن ، وكنت أنظر إليهما من خلال دموعي الحارة التي هطلت رغماً عني بلا وعي مني .. وهل بقى في العقل وعي يعي ؟ الغشاوة على عيني أبعدتهما جعلت منهما خيالا يلتحم ويمتد ثم يتراقص عبر سراب أكثر حمقاً من انتظاري التعس لهما .

كنت أمسح دموعي بكم قميصي الأصفر ثم ألعن وأشتم ضعفي وعيني ودموعي ، ويخطر لي فجأة بلا وعي ولا إرادة ولا رغبة حتى في مواصلة الشتائم التي أخذت حيزا ضخماً من زمن الانتظار وأحرقت الوقت معي وأكلت توهجه ومرغت بغروره الإسفلت المغشوش الذي أحرقته بنارها الكاوية قيلولة مرعبة .. قلت في ما قلت قد يخطر لي الغناء قد أرقص الآن أيضاً فوق الجدار القصير الحبيب الذي يفصل الطريق عن هوة الوادي .. لما الكذب أو لعله الحياء السقيم ، لكني غنيت بجنون ورقصت بخبل فوق الجدار وفوق الطريق وفوق رمال الوادي الساخنة وتحت أشجار البرتقال وتحت القنطرة المظلمة التي لا تحوي الجرذان فقط لكنها تحوي الأفاعي كانت ترقص معي كأنها تواسيني ، وسوف تشهد معي شهادتها المؤلمة التي تخلو من

الزيف لأنها ليست في حاجة إليه .. ليست في حاجة أيضاً للتزلف ولا التباهي ولا الغش .. أنها في حاجة فقط لقول ما رأت وما سمعت دون مواربة دون .. دون نقصان دون تبجح .. هل من وعى الدرس وجعل الأفاعي قِدوة ؟

" الأفاعي !؟ "

" لا تبتئس ! بشرك أفضل .. فأنظر إلى ذاك القادم تحت غمامة من الحقد الأسود .. "

كنت أغير المكان من حين لآخر حتى تشهد معي الأشياء، والأماكن.. والساعات إذا ما وجدت لها شيئاً من الجرأة وشيئاً من الإنصاف .. عند وصولهما للجسر انعطفت سيارة بيضاء اللون مثل سيارتنا تماماً من الطريق الرئيس الذي تحفه أشجار الصنوبر السامقة من الجهتين ...

" أتكذب !؟ لم يكن هناك صنوبر في تلك الطريق . "

" أي طريق ؟ "

" ألم يأتِ من تلك الناحية التي تفترش فيها طرابلس رمال الشاطئ . "

" من قال هذا .. أقبل من الناحية التي ترتمي فيها طرابلس فوق رمال الصحراء . "

" آه . قل من خلة الفرجان ولا تخشى جهلي المفرط ، أعرف الاتجاه تماماً منذ الازل . " كنت أقول أقبلت نحوي ـ لا تعد تقاطعني ـ لم أتبين السائق إلا بعد حين عند اقترابها مني ، وكان كما خمنت

تماماً ؛ أنه أبي ! ولكن ما الذي جاء به في مثل هذه الساعة ، ومن تلك الطريق ، وفي لحظة من ثانية قفزت كالقرد إلى الجهة الأخرى من الحاجز وتدحرجت إلى الوادي ، كانت سقطتي على وجهي عنيفة موجعة لكن{ الله} سلم فلم يراني أبي ، وبدا فقد كانت السقطة ناجحة وأعطيت نفسي الامتياز لسرعتي وحسن تصرفي حتى وإن أسفرت عن بعض الضرر الهين الذي تمثل في سقوط سن من أسناني الخمس والعشرين ، وتخلخل أخرى .. أحمد {الرب} لقد بقى في فمي ثلاث وعشرون سن من أصل اثنتين وثلاثين .

ولي من العمر أربعة عشر عاماً .. نهضت بعدها في مثل لمح البصر وتواريت تحت الجسر زيادة في الاحتراز وظللت مختبئاً كالفار دون حراك فترة من الزمن حتى بعد أن تيقنت أن السيارة مرت ولم يفطن الوالد العزيز لوجودي ، هنأت نفسي وأنا أخاطبها في أعجاب :

" الآن أنتِ تستحقين علبة كاملة من سجائر - سبتموس سفيروس -

" ومن فوري انطلقت إلى أقرب دكان واشتريت لها ما وعدتها وعدت إلى قعر الوادي فالسياج لم يعد أمناً منذ الآن فوالدي الشديد المراس العظيم الهيبة والعنيف لا يلبث حتى يعود أدرجه من ذات الدرب الذي مر به منذ حين .. لم أكد أنفث أول نفس حتى سمعتُ الصفير .. كان صفيراً مميز أعرفه .. أنه لذاك المدمن كأنما هوت به غمامة من كبد السماء أو قذفت به صخرة من جوف الأرض .. أشتم دخان التبغ . يا له من خفاش ! حاولت الاختباء لكنه أقبل يجرى كأنه يطير يلاحق رائحة التبغ المنتشرة حول مكامني ، وعندما رأى العلبة أنقض عليها كوحش بكلتا يديه، حاولت إخفاءها ولكن على من !

قلت محتجاً :

ـ" خذ ما يشبع نهمك للسم، وأترك لنا ما نحرق به الخوف ونقاوم به بؤس اليوم الذي بدأ يلوح "

كشر عن أنيابه وهو يغمغم :

ـ " لا تكفيني علبتين منها .. منذ زمن لم أدخن مثل هذا النوع .. ألم تترك التدخين ؟! مالك ولهذه الآفة التي تحرق القلب وتثقب الرئتين .. "

ـ " ورئتيك يا (عنتر) زمانه ! "

ـ " دعك من رئتي . واسمع المفاجأة ! "

ـ " أي مفاجأة يا مدخنة معطوبة في حاجة إلى عمرة .. "

ـ " مدخنة معطوبة ! أنا يا لك من وغد ! كنت دائماً ما أعتقد أنك بارع في اختيار النعت اللائق والوصف الدقيق .. لكن براعتك خذلتك في هذه المرة .. أنت هو المدخنة المعطوبة أما أنا فأني مدخنة من النوع الممتاز التي لا يمكن أن تصاب بعطب مثل تلك المداخن الهشة المغشوشة الطراز .. اسمع الآن ما يفاجئك يا سيدي المغشوش ؛هناك من جاء يسأل عنك بإلحاح مريب ..

ـ " يسأل عني أنا ؟! مصيبة لو كان أبي خطر له هذا الخاطر لأول مرة .. "

مد لسانه ورفع يده فوق حاجبيه فصارت لهما على هيئة مظلة ثم ألتفت باتجاه المدرسة فسقط قلبي بين قدمي الممدودتين فوق رمال الوادي .. ما خفف عني خوفي هو لسانه الذي ظل يتراقص خارج

فمه كأنه يحدد به الاتجاه الذي يجب أن تسلكه عيناه لترى مدرستنا المصونة من الدواهي التي تحلق فوقها ، بفعل دعوات التلاميذ وحفنة من المدرسين وبعض الأهالي بركات صلاح المدينة المتحزمة بالأضرحة .. لم يكن لسانه يعرف بالطبع أننا في قعر الوادي ..

" أتـراه يعرف ! هذا صعلوك له أفانين عجيبة لا تخطر ببال الشيطان . " قالت نفسي الصامدة.

كان يعرف بأن ما سنراه منها لا يعدو أن يكون صفارة الإنذار بعمودها الأسود الطويل ومكبرات الصوت الثلاثة التي تعلو العمود الحديدي المثبت أعلى سقف المدرسة .. ألا ترى الآن أن بوصلتك الطويلة الحمراء المنفلتة من فم يتبجح مرصع بأسنان صفراء مهشمة ؛ هذا الاصفرار يا صديقي الطيب من أثر التبغ ، وهو ضرر تافه إذا ما قُورن بالمصائب الأخرى ..

التفت إليّ بعد أن عجز هو وبوصلته اللعوب على تحديد الاتجاه الصحيح قائلاً في غير ما اهتمام :

ـ " لا . لا لم يكن أبوك . "

أخذتني رعدة راحة وفرح وتنهد صدري مرتين : مرة لأن أبي لم يفكر في زيارتي وهذا مبعث راحة ، ومرة لآن هناك من يهتم لأمري وهذا مبعث سرور ، فنطق لساني بما لا يحب قلبي أن يصرح به .. لأنه كما الجرح في داخلي وفي البعيد البعيد من خلايا فؤادي ، كنت أود أن يكون هو من يسأل عني . لكني نطقت بلسان المكابرة والغرور والطيش وسطوة الشياطين على عقلي التائه والذي خلخلته الأدخنة

وتجوالي المرير خلف طيف مكبل :

- " كنت أعرف أن هذا خاطر مستحيل بالنسبة له .. وعلى هذا فأنا لا يهمني حتى وإن كان الشيطان هو من جاء يسأل عني . "

- " الشياطين لا يسألون عن أمثالك . أطمئن ! "

قالها برعونة ، وهو يمرغ رأس السيجارة الخامسة تحت حذائه المطاطي ويدفنها مثل أخواتها تحت الرمل ، ثم يظل يستجدى أخرى حتى الممات .

- " من أذن إن لم يكن هو ؟ أليست هذه خامس لفافة تدفنها ؟!! لقد طمرت نصف علبة في خمس دقائق .. ما بالك أهلك { الله} رغباتك ونجنا من أدمنك ... "

- " وكيف ستنجو مني في نظرك ؟ الحل الوحيد في رأيي أن تدمن مثلي . لما لا تحرك عقلك الخامل الذي عشش فيه الكسل ! "

- " أهو ذكر أم أنثى ؟ "

- " بغل ! إن لم يسأل عنك الشيطان فهل حسبت أن الإناث قد يخطر لهن هذا الخاطر العجيب ويسألن عنك ، أنك أذن غبي إذ تفكر بهذا الصنف .. ومن تحسب نفسك .. هه . قالك أنثى ! "

- " عجيب ألم تكن أنثى ؟ "

- " أرفع يديك بالتسليم ، وهات العلبة الثالثة ، وسوف لن أبخل عليك بالمفاجأة التي أذهلت حتى المعلم الذي ظل يسأل ويستفسر من .. وعن .. ما فعل ؟ وما جني ؟ وماذا ؟ وكيف ؟ وما .. ! "

ـ " أرجو أن تخلو من الكوارث ! هذه زيارة شر خلفها المصائب وبلاءها مستطير . "

أبتسم وهو يمحق لفافته بل لفافتي السابعة تحت حذائه ، المراوغ سحب مني مؤنتي لهذا اليوم ، وها هو يلوح بيديه وهو مطأطئ برأسه نافثاً آخر نفس منها :

ـ " لا . لا أطمئن . هذه فقط من اثر ترهات معلم التاريخ .. أنت تعرفه مهلوس ووسواسه لا ينتهي .. لن يقتل هذا المعلم إلا الوسواس المتسرطن في قاع رأسه الأصلع .. "

ـ " ألن تكف عن الفجور وتخبرني .. من هو مبعوث الملائكة ؟ "

ـ " المدير ! "

رفعت فيه عينين يملاهما السخط وإن كانت الدهشة تختبئ وراء النظرات الغاضبة :

ـ " أهو مديرنا ! يا لك من أبله لقد أفزعت روحي وخلخلت قلبي. "

كاد بؤبؤ عيناه يقفزان إلى حجري ، ظل يترجرجان في المحجرين الأحمرين .. وولول قائلاً :

ـ " ألم تفزع ومدير المدرسة يأتي بشحمه ولحمه وسطوته ليسأل عنك، ما الذي يفزعك إذن ؟ "

ـ " أهدأ حتى لا ينفجر قلبك وتصاب بداء يقذف بك إلى حفرة يسمونها قبر حتى لمن كان مثلك ، كل ما في الأمر أن المدير صاحبي ، وربما أقبل كي يستعير مني كتاب أو يرد كتاب لي كان قد استعاره من قبل . "

- " لم أكن أدري بأنك من الأهمية بحيث يسأل عنك المدير ويتواضع ليستعير منك الكتب ! "

- " أنت لا تدرى إلا بهذا الذي في فمك .. أما ما عداه فهو مجهول مجهول مجهول يا ولدي ، ولو كان (محمد الهادي) هنا لغني لك (قارئة الفنجان) من الساعة الراهنة لصبح الغد . "

- " على ذكر (محمد الهادي)، صاحبك هذا لم يظهر على ساحة المعارك منذ أسبوعين . "

أمسكت بحبل اللغو في إصرار عندما جاء ذكر المغرد الوحيد في فرقتنا :

- " أظنه في (ترهونة) ، لا لا هو حتماً هناك . هناك بلا ريب عند أخواله من بني (درهوب) أحدهم سيدخل القفص اليوم أو غداً فيما أظن .. "

- " أي قفص ؟ "

هكذا أخرجه سؤال أبله يتدحرج من بين شفتيه المطبقتين على آخر سيجارة أستولى عليها من علبتي التي كان فيها سجائر من النوع الذي يفضله .. لم يُبق على شيء منها نسفها في وقت قياسي . ما أكثر الأرقام القياسية التي تتساقط تحت قدميه بفضل هذا المكروه .

- " القفص يعني أن صاحبنا سوف يكون محشوراً تحت سقف تسيّر أموره امرأة ..هل فهمت ؟ أم أن الحمق مازال يستعمر رأسك المستديرة "

- " هل تعني ... ؟ "

- " بالضبط . كما قلت ! "

- " لكني لم أقل شيئاً .. هل هو عادة خاصة بكم ؟ "

- " بل هي على حد علمي معروفة على نطاق دولي يعرفها الرجال في كل المعمورة وأظن النساء أيضاً .. أسأل زوجتك إذا ما تحصلت على وحدة في مستقبل عمرك التعس عندما تقفل عليك أبواب القصر ! أعني القفص ! أي قصر !؟ أمثالنا للأقفاص والعشش لا القصور .. "

- " آه . أنت تعني الزواج إذن ! "

- " أعني الزواج يا لئيم الطلعة .. "

- " والمدرسة !؟ "

- " في الأعراس يجب أن تتوقف المدارس كي تفسح المجال للفرح واللهو والانبساط .. قلت ذلك مراراً ولكن لم يأخذ برأيي أحد ... "

- " قلت لمن !؟

- " ما بال أسئلتك وترية جافة تستفز .. قلت ذلك لنفسي أول مرة ! وها أنا أقولها لك الآن . "

- " ثم ! "

نظرت إليه وهو يلاحق أوراق شجرة الخروع التي كنا نستظل تحتها منهكين : هو لأنه طمر آخر عقب سيجارة من نصف ساعة فأصبح مشوش الذهن فربما غطي رأسه قطران التبغ فانطمس ما تحته من دماغ يفكر ويريه الأشياء كما نسميها .. أكان عقل أم بعض

ترهات وسفسطة وتبجح ، وأفكار تلهث وراء أمل يحاصره ضباب عنيد .. أما أنا فكنت أتبع الدخان الذي ظل يعلو ويعلو متوغلاً بين أغصان الشجرة التي ما فتئت تعبر عن استيائها الشديد ..

- " أوصيتها أن تخبر الآخرين ، لكنها لم تخبر أحداً ! أتراها خذلتني .. أم تراها نست .. لعلها استحت ؟ فعندي نفس رطبة تستحي وتنكص بي أحياناً عن ما أود أن أفعل ما أود أن أقول ! وما أود أن ابتكر أحياناً .. على العموم لا شك بأن (ترهونة سوف تترهنه)... " فشرق فجأة بضحكة مدوية ، وصار ينتف أورق الشجرة المسكينة وهو يتلوى بجذعه كقرد يتضور من الجوع حتى دمعت عيناه وسقط على ركبتيه وصار يحث التراب حوليه كمن أصابه وبال . لم يكن هذا من أثر التبغ أبداً . ربما يكون من أثر الشمس .. لا شك أن الشمس والدخان

يمكن أن تفعلا ذلك . يمكن أن تفعلا أكثر خاصةً عند خروجك من مادة ثقيلة (كالرياضيات) ومدرس غليظ كالأستاذ (فرج بؤ) غليظ وقاس له رأس مثل حجر الصوان ، وعقل .. ! مثل حجر الرحى.

- " لماذا تضحك ؟ "

فأجابني والنوبة مازالت تخضخضه :

- " عليك لعنات الدنيا والآخرة وما بينهما من ظلمات .. من أين أتيت بهذه الجملة ؟ "

- " من محمد نفسه .. فعندما أخبروه مرة أني في (غريان) نطق بجملته التي أضحت مشهورة ماركة سجلت للعندليب (محمد الهادي

) ؛ (غريان بتغرينه تغريَين) . يومها ارتجت هذه القنطرة بالضحك ، وانتقلت أصداؤها عبر الوادي من الجهتين حتى وصلت القنطرة الحديدية في الجنوب ، والقنطرة الإسمنتية المطروقة بالمارة والعربات في الجهة الشمالية من هنا ، ولن استغرب إذا ما أخبرونا أنها صارت تتمايل هي الأخرى من الضحك .

في هذه الجهة المعمورة من الكرة الأرضية المأهولة الأتساع ثلاث قناطر لا يفصل بينها فيما أحسب إلا بضع مئات من الأمتار ، وإن طالت فهي لا تزيد عن الألف بأي حال .. قنطرتان متينتان من الإسمنت ، وأخرى حديدية قديمة يقال أنها خاصة بالعسكر متهالكة رغم صمودها الجبار المثير للدهشة حتى أن السيل لم يستطع قهرها في أي يوم من الأيام على حد ما أعلم . على حد ما احتفظت الذاكرة من تلك الأيام الخوالي .. من ذاك الزمن الرطب ، ورابعة لا تكاد تبعد بأكثر من الألفين من الأمتار في منطقة يقال لها (بلوزة) ؛ وهي إحدى مناطق (الهضبة الخضراء) المتعددة .. "

- " على هذا فالهضبة مشهورة ! "

- " أجل ، مشهورة .. مشهورة جداً ! "

- " بما ؟ "

- " بك وبي وبالفيضان .... "

ظل ظليل

عادل مازال يتمرغ في وحل النكتة ولعلعة الضحكة ورنين الكمان .. حتى بعدما صار موهوباً وعضوا في فرقة من مجانين الموسيقى .. كانت الفرقة أشبه بحفنة تعسة من الصبيان يقودهم أعمى فرفضت الانخراط فيها ذلك لأني أبله .. أما عادل وجماعته فهم بكل المقاييس أنجع مني لهذه المهمة المحفوفة بالموهبة التي يخلو صدري منها ومن أبناء عمومتها وأبناء عماتها وبنات الخال والخالة فلا صله تربطنني بكل ما يحاذيها أو يجاورها أو يلامس همس أوتارها التي تأتيني جافة لا تحرك فيّ طرفة واحدة من أحد عيني .. كنت خاوياً لم أبرع في شيء حتى أن الأولاد كانوا يعيرونني بالخمود ، خاصة وهم يرونني نائماً فوق حائط الجسر الإسمنتي في كل يوم بما في ذلك الجمعة والعطلات الرسمية والدينية والتي لا رسم لها ولا دين .. أنا لا أنكر هذا ، ولم يسبق لي من قبل الكذب في هذا الشأن أما الآن فيبدو بأني سأعيد النظر في مسألة صدقي الدائم الذي جر عليّ احتقار مثل هؤلاء الأطفال البلهاء ، وسخط والدي الذي ضبطني متلبساً بالنوم فوق حائطي المفضل للمرة المائة .. كان يصرخ وكان يهدد وكان يلعن ثم يقذفني بجملته المشهورة :

« كان نفعت في يوم تعال حاسبني . » « لم أنفع يا أبي صدق حدسك ، ولكن هل كان الحائط هو السبب أم الوادي أم أن العلة

تكمن في عقلي وحسب مع العلم أن ظروفي كانت أكثر من جيدة إلى جانب الاهتمام والرعاية التي ألقاها من أهلي والجيران ومعلم التربية الإسلامية والظاهر بيبرس معلم التاريخ ، والمصيبة الكبرى أنهم كانوا ينتظرون مني أن أبرع وأبدع وأتفوق وبالتالي أكون ذا قيمة كبيرة ويفتخرون بي ، وهذا ما كان يثقل كاهلي خاصة وأني خال من المواهب غير أني لي قلب يتوهج .

لم أفرغ من عادل بعد . هل كان هو سبب ما أنا فيه من كسل ؟ رغم أنه لم يكن كسولاً مثلي كان نصف موهوب نصف خامل ، وأكاد أجزم أني أنا أحد أسباب خموله - لما لا تثبت على رأي واحد - هذا العادل وصل في أحد فترات جنونه حد التفكير في ضرب الأرقام القياسية ، وأقنعني أن أسهل طريق إلى ذلك هو تجرع المكروه - على فكرة قلت المكروه ولم أقل المنكر فلا تبتعدوا كثيراً في التفاسير الباطلة - أنا أعني الدخان باللهجة الدارجة (السجائر) بكل لغات العالم الأخر .. استسهلت الموضوع ولم أخذه على محمل الجد وبدأت وإياه برسم الخطة البارعة حسبما رأت بلاهتنا ، والتي كانت كالتالي ؛ عند فسحة المدرسة التي نسميها (استراحة) نقفز من سورها الخشن ونهرب باتجاه الغابة ثم - وكان وراء الثمه هذه ما وراءها - إذ نقوم قبلها أو بعدها بشراء ما بين علبتين إلى أربع علب سجائر قد يصل العدد إلى خمس أو ست علب بمقدار ما نملك من نقود في يومنا ذاك ؛ والتي هي عبارة عن مصروفنا اليومي الذي لا يتعدى المائتين درهم باللهجة المحلية (عشرين قرش) مصروف تلميذين صغيرين في المرحلة الإعدادية .

في أغلب الأحيان تكون هذه العشرين قادرة أن تشتري لنا أربع علب من النوع الراقي المستورد من العالم المتمدن .. هل من داع أن أسميها ؟ لا أعتقد بفائدة ذلك ، فالسادة المدخنون يعرفونها كما يعرفون كفوف أيديهم .. بعد الحصول على علب السجائر من أقرب دكان نمتطي ظهر الطريق الرملي الذي يبدأ من ميدان الكرة المحاذي للجسر في بطن الوادي ويسير حتى الجسر الحديدي ثم ينكسر صاعداً ضفة الوادي إلى الغابة ، كانت طريقاً خاصة بنا نحن رسمناها ، وكنا نخوضها جنباً إلى جنب ، ونحن نحتسي السجائر الواحدة وراء الأخرى دون راحة .. نثرثر ونضحك ونغنى ونتشاجر و يقذف أحدنا الآخر بالألقاب فيقذفه الثاني بالحجارة والسِبب فيعيره الأول برسوبه المشين في مادة (الدين) ويعيره الثاني بالغباء وبجهله المريع في فنون كرة القدم .. كانت الخطة هي نفسها تتكرر كل يوم أو يومين و تقضي بأن ننسف علبتين على الأقل ننفث دخانهما في الهواء ونمتص سمومهما في الصدور على مدار الرحلة التي تستمر حتى الظهر نقطع خلالها طريق بطن الوادي حتى القنطرة الحديدية ثم نتسلق صاعدين إلى الغابة التي نقطعها مشياً متمهلاً في درب يلتف حول المزارع إلى أن نهبط إلى الطريق الزراعي المسفلت والطويل الذي يشق المزارع ليصل في نهاية المطاف إلى الجسر مرة أخرى في رحلة دائرية يربو طولها على خمسة كيلو مترات صحيحة . لم يكن هذا على وجه التقريب ..

عندما نصل منهكين إلى مربطنا عند الحائط القصير الذي يفصل الطريق عن ضفة الوادي اليمنى ونلقي بأجسادنا وراءه مخافة

أن يضبطنا أحد أفراد الشلة في هذا الوضع المزرى وأبخرة التبغ تفوح من أفواهنا وأجسامنا وما نلبس وما ننطق وما نتنفس ونحن في حالة يرثى لها من الضعف والوهن والتعب يكون صديقي المدمن اثناءها قد وصل خلال رحلتنا إلى رقمه القياسي الذي لم يرضى عنه في أي يوم من الأيام ، ذلك بأنه سيكون قد أمتص نصف علبة من السجائر المستوردة أو المحلية حسب ما هو متوفر ولوحده كل نصف ساعة ، وبدا فأن عملية حسابية بسيطة تصل بنا إلى علبتين ونصف نسفهما لوحده ساهمت معه أنا بنصف علبة .. كنت أشاركه النكبة ولكني اعتزلت أخيراً وتفرغت لما هو مفيد فأصيب هو بنكسة كان من أهم نتائجها خيبة الأمل في أن نصل إلى رقم قياسي يخولنا الدخول إلى القائمة الدولية الذائعة الصيت التي تسمي (جينس) ،هذه القائمة اللعينة التي أكلت مخه ، أستمر هو على هذا المنوال شهراً لم ينقص يوم ، كان فيه وحيداً تماماً ،وأن كنت أشاركه التجوال ، ولعله أستطاع تحقيق المراد والدخول للقائمة الملعونة ، أنا لا أشك لحظة في ذلك .. وصل بالتأكيد إلى رقمه اللعين ، وصل بغيته التي أردها دون أدني مشاركة من جانبي ، وإن لم يصدق ما كنت متأكداً منه .. ما عدت أستطيع التأكيد . فالبلهاء يحرقون مراكب البهجة التي تسير حثيثاً نحو غاية لا يدركها إلا مغامر ركب رأسه .. كان يغلق منافذه التي يمكن أن يمر من خلالها أيما نصح .. هه . أي نصح أيها المعتوه ! مع هذا المتيم بالأبخرة .. كان يغلق أُذنيه الاثنتين دون صوتي .. يضع في كل منهما قطران أسود ، ويتحسس عُلب السجائر ثم يختمها بالشمع الأحمر ، حتى لا يقترب منها البلهاء أمثالي ، وتلك سمة نتمتع بها

أنا وهو عن جدارة ، ميزة تميزنا عن غيرنا أليس لكل جماعة ميزات تميزها عن غيرها .. كذلك نحن عندنا هذه القدرة العجيبة على إغلاق كل الدروب التي تصل بنا إلى الفهم والامتثال ، حتى حوار الذات مازال يتأرجح بين الغضب عليها ونقدها أو اتهامها بالجهل والنقص والخذلان أما التواصل مع الآخرين فتلك غاية بعيدة المنال . هل نأمل أن تكون الأجيال القادمة أفضل ؟ تلك لعمرى غاية عزيزة ! لو أنك تسكت ساعة من زمن ربما يأتينا الفرج .. لكنك بشع لا تنصت ولا تصمت ، وطالما أنت تتفوه بالمنكر وتحتسيه من غير تدبر فلن تكسب من وراء ذلك إلا مد ساقيك الخشبيتين في ظل خروعة ذابلة أو تحت هذا الجدار والتمرغ فوق هذه الرمال ، أتحسب أن الأوتار سوف تنجيك من أقدار الوادي ! صباح الخير يا عمي راجي .. الرجاء أنقطع من زمان ، وبانت نية الأقدار .

حتى ولو كنت الموسيقي المميز في مهرجان الأمس ما بالك وقد كنت الأخير ! لا تتفوه أمامي بالأكاذيب ولا تتبجح . أتحسبني جاهلاً وقد رأيتك بأمي عيني وقد هرب منك النغم ؛ شرد نسيته فنساك . أليس هذا ما تقولونه يا معشر (النوتات والآهات ، و يا ليل يا عين) ؟ أنا لا أفقه كثيراً ولا قليلاً في حروفكم الموسيقية ، ولا في (البياتي و النوى) . ما أسعدني لو كنت تعلمت وذاع صيتي . لو خرست لكان أفضل . ما أنكد حظي وقد ألتقيتك فشاع كسلي وانحط قدري . هه . لطالما قالت لي نفسي : أرقد ما طاب لك أن ترقد وشخر شخيرك ثم أبتئس كما يحلو لك أن تبتئس .. لا عليك اليوم مني فأنا محبط قليلاً قليلاً .. وأنت في الأوج من النشوة .. هه !

لكني أعرف ما يعنيه أن يخرس القوس فوق الأوتار ويعجز عن إظهار النغم حتى وإن حاول صاحبه إيهامنا أنه غارق في الإلهام ومستمتع بالنغمات وأنه يعاني سكرات النشوة كي يمتعنا معه بآه مغمورة في الوله ! لا تظنني أبله حتى وإن خدعت الكل بحالة من الانتشاء الكاذب الذي ما كان غير ارتباك وتبلد حس .. ولكن هذا لا يقلل من موهبتك الممتازة .. أنا مقتنع تماماً أن لك مستقبل يلوح في الآفق عبر هذا الدرب الممتع .. كان يوماً فظيع نمناً فيه حتى الظهر ولم نجد متسع من الوقت للتسكع في الغابة في ذاك اليوم المنكود ، أنت مشدود للأوتار، وأنا مأخوذ ببراعتك في الطرق على أوتار الكمان بقوس أعوج ويد مرتعشة وفكر يتقن ابتكار الحيل ، وقد صرت أضحك وأنا أري عينيك تتراقص ذات اليمين وذات الشمال وهي تتبع الناس .. أكنت خائفاً أن يضبطك أحدهم متلبساً بحيلتك التعسة يا لك من مخادع ! لو كنت مكانك لما وسعني إلا أن أفعل ما فعلت .. تلك حيلة لا بد منها في موقف عصيب كهذا ، وقد أتقنت الدور بامتياز أهنئك عليه ، صفقت لك كثيراً أتذكر! ليست البراعة في أن تحفظ أي قطعة موسيقية وتؤديها مثلك مثل غيرك ، ولكن في قدرتك على التخلص من المواقف المحرجة مثل تلك ، والخروج منها نظيفاً بلا ضرر ولا ضرار أللهم إلا عدم رضاك عن نفسك ،هذا إذا ما كنت سوّى لا اعوجاج يسكن عقلك المعتوه .

- " احتفالاً بذكائك سوف أهديك صنفاً محلياً لا شك سيسعدك تذوقه من جديد . "

- " أنا لا لا لا أشكرك من صميم صميم قلبي .. هديتك ذات

هالة من الأدخنة المرعبة . تفوق ما فعلته إن كان ما فعلته خير يكافأ عليه ، وإن كنت أره شراً مستطيراً بالنسبة لموهبتي . "

ـ " يا لك من ناكر للجميل ! أنسيت تلك الأيام يوم شحت في أيدينا الدراهم .. يومها لم نجد إلا هذه الأصناف التي تتكبر عنها اليوم كطاووس أصابه الخبل في آخر يوم . في آخر ساعة . في آخر لحظة ... هذا إنذار بموتك أو موت الموهبة أو موتك وأياها معاً .. فراقدا بسلام . "

تلك الأزمة كانت في فصل الصيف .. أظنها كانت في فصل الصيف عند انقطاع المصروف المدرسي فتحولت بنا الحاجة وقلة ذات اليد إلى السجائر المحلية التي كانت رائجة في ذلك الزمن اللطيف الذي يمشي على مهله مرتاح الضمير .. أتذكر تلك الأصناف ؛ الغرياني وجفارة ولبدة والمنار وأطلس ... ، وأصناف أخرى نسيتها ثم جاءنا (الرياضي والهاني) أتراك نسيتها مثلما ينسي البخيل أنه تعشى أمس عند الجيران حتى لا يضطر إلى استضافتهم على عشائه ..

فلم تخيب رجاءنا فيها كانت ممتعة وكانت وفية كما كانت رخيصة وأدت ما عليها نحونا ببطولة ، وقد رافقتنا في رحلتنا اليومية زمنا يمرح على مدار (النهارات) الصيفية . وها أنت تكافئها بالجحود .. لا شك أنت . أنت هو من قال عنك المثل الشعبي المشهور (يأكل الغلة ويسب الملة).

ـ " هل أعجبك هذا الصنف المحلي النادر المثال ؟ "

ـ " أنه مثل القش لكنه يغرغر في صدرك بلذة مميتة أعني لذيذة

لا تعرف كيف ؟ لكنه يملأ الرأس ويثقله حتى يصير مثل ذاك الجسر الفولاذي المأكول بالصدأ . "

- " أجل . فمن أول نفس تجد نفسك في جزر (الـواق الـواق) دماغك يفور ، وقلبك يتراقص ، ونبضك يسابق أنفاسك ، وأنفاسك تلاحق مصير مجهول ! "

- " جرب هذا صنف جديد . "

- " أطلس ! "

- " اسم على مسمى فهو طويل مثل جبال أطلس التي قرأنا عنها في كتب الجغرافيا أمس تطاولت حتى مدت رأسها للسحاب ، { بربك } في ما يختلف هذا عن ذاك (الكنت) المستورد ، تذوقه وستعرف أن ذاك الأجنبي لا يعلو أبداً على (أطلسنا) المحلي وربما محلينا هذا يتفوق على أجنبيهم ذاك فقط لو كان هناك من يقدر الصناعة الوطنية حتى لو كانت صناعة للتبغ المكروه. "

- " هذا تقارنه بذاك أنك تهذي وهذيانك يوشك أن يغرس في جمجمتك خازوق ! "

- " نعم نعم . مفهوم أنت عربي على كل حال ، ومازالت تلك العقدة اللعينة التي تبجل الأجانب وصناعاتهم وبلادهم وثقافتهم ولغاتهم وبشرتهم وموسيقاهم وأحذيتهم وترهاتهم ووجوههم وأنوفهم حتى غبار طرقاتهم . حتى أحجار جبالهم . حتى مياه أبارهم . حتى وحتى وحتى ... كأنهم أصناف آلهة ونحن أصناف بشر! المصيبة أن كل ما يحط من شأننا هو من صنع أيدينا ."

نظرت إلى السماء أسألها العون والصبر و كنز ينزل على من السماء رغم أني أعرف تمام المعرفة أن السماء لا تمطر لا ذهباً ولا فضة ولا كنوز ولا حتى قش .. حتى المطر شحت به السماء وبخلت .. لكنها عادة استولت عليَ منذ الصغر عندما رأيت في الحلم أن نيزك كبير ينزل عليّ من السماء ويخطفني ويرحل بي . إلى أين كان سيأخذني ؟ لست أدري ؟ وكيف أدري ؟

وقد أنتهى الحلم قبل أن يبتعد بي النيزك حيث قذفني فوق شجرة بطوم يابسة فوق قمة جبل بسطام الذي يظلل قريتنا الباسمة . عندما كبرت عرفت أن النيزك ما هو إلا حجر ملتهب ينزل من الفضاء البعيد يقتل ولا يخطف . يميت ولا يحي . يدمر ولا يبني .. فهو لن يمضي بك إلى أي مكان ، ولكنه يدمرك في أرضك ، ويجعلك عبرة لكل من يحلم بالنيازك .. فصرت أخاف أن الجأ إلى السماء مرة أخرى حتى لا تقذفني بنيزك ملتهب لآن هذا كفر فما السماء إلا مخلوق مثلنا ليس في قدرتها لا النفع لتمنحنا الكنوز ، ولا الضر لتقذفنا بالنيازك .. من هذه الناحية أنا أكثر سذاجة من ذلك الذي كسر الآلة الجميلة لمجرد رسوبه في الامتحان ، وما ذنب الآلة المسكينة إذا كان له عقل ثور . هذا الذي كنت أحسب له وأخطي ، وأحسب ولا أصيب ، وفي نهاية المطاف لا أجد إلا التخمين مخرجاً لي من إحصاء أعداد السجائر التي يلتهمها . كأنه يلتهمها ! لم يصاب منها بتخمة حتى بعد أن صارت شراهته ونهمه لها حداً يصعب معه التصديق ويصعب معه العد .. ما أنا إلا عربيد ضعيف الرأي حتى أحاول مع هذا ، كان كأنه فقد السيطرة ، وانتهي به المطاف إلى الخبل في ما

يخص التدخين . أهو الإدمان الذي نسمع عنه ؟ أما أنا لي رأي آخر في صاحبي المدمن ، حتى لو قلت لا ينفع أن أعطية نتفة صغيرة جداً من مديح ولو أستحقه في رأي آخر عشر خلايا لم يسحقها الدخان في دماغي الذي حسبت أنه ثلوث من كم علبة تجرعتها مع هذا المعتوه ولكني فطنت ونجوت أما هو فأظنه وصل إلى رقمه القياسي الملعون وصار يستحق تلك (الجينس) وها هي الأرقام تشهد بذلك ..

- " تجرع في هذه المدة الوجيزة ما يفوق الثمانين علبة في شهر واحد فقط ؛ من أصناف عديدة تربو على العشرين غير أصنافنا المحلية وفي أخر خمس أيام . "

- " ولم يمت "

- " مات الدخان الذي أمتصه في أحشائه ونفثه في هواء الغابة وطريق الوادي الرملي .. لم يسلم من تبغه حتى نبات الخروع عند نواصي الضفتين من الوادي . "

- " أنا ؛ ماذا عني ؟ نجوت من الدخان والأرقام والقوائم .

- " يا إلهي كم كان ذلك رائعاً .. "

- " وما الرائع في هذا التسكع كله !؟ "

- " البراءة ! البراءة يا صديقي الفنان . "

فتى الرمال

ظهرا فجأة من وراء السياج الحجري المقابل كشبحين ولدا من غبار الطريق، وكأنما انبثقا من تحت رصيف الجسر الذي حفرت فيه المياه والآفات والجرذان خنادق كانت من الغور بحيث تتوغل حتى تصل أو تكاد قواعده المسلحة . معفران بالطين ومنهكين .. يلهثان ويضحكان .. السمين الضاحك يسبق الطويل المتجهم الذي يرتسم حول عينيه حزن ، وتظلل وجهه سحابة نكد داكنة ، يحاصره صمت مجهول مطلسم دون عقولنا وإن كنا نعرفه فيه .. كان يدير رقبته كجمل خائف من نصل الجزار ، ذات اليمين يحركها ، وذات الشمال يغصبها ، وذات الوراء والأمام كأنه يبحث عن قرينه الذي أنسلخ عنه عندما كان شبحاً من غبار .. له نظرات صارمة تتوعد بحيث كانت تمرق من فوق رأس القصير الذي كان يبدو غافلاً يهرش بطنه ويهز برأسه موفقاً وإن كانت شفتاه تتمتمان رغم آلم الوخز . بـ لا . لا لن أكون خروفا حتى لو ذبحتني تحت الجسر! شعرت بها تكاد أن تقفز من بين شفتيه المطبقتين . أحسست بـ (لا) هذه التي لم تخرج من فيه مطلقاً ولم يسعها الخروج والنظرات الجارحة تحاصرها وإياه دون هوادة .

لست أدري ؟ سوف أرقب وأنتظر على كل حال ! لكني خمنت

وأني أرجو أن يكون تخميني ضرب من ضروب الخداع ! أو هوسا أصابني من طول الرقاد فوق كتلة الاسمنت المضنية ...قفز القصير وجلس بجانبي فوق أعلي الجدار كانت لفتة جميلة من قلب طيب رغم النظرات المسلطة عليه . ومشى الأخر صوب السياج مد يديه الطويلتين وانحني بجذعه إلى أسفل حيث الوادي ، خلته سيقفز إلى قاعه الصلد ، وقد كان من الجرأة بحيث كانت تخطر على باله مثل هذه الخواطر المميتة ببساطة . كبساطة . أنظر ها هو طائر فوق رأس الجسر أو ها هي حمامة عند حافة حوض السباحة الفارغ اليوم على غير العادة . ليس لأنه شجاع ومتهور فقط ، وليس لأنه ترعرع بين قاعه وقمته وأنه يحب كل حجر وكل سيخ من ذلك الجسر الذي أختلط صديده وحصاه ورمله وطينه بدمنا ولحمنا وتغلغلت في عظامنا وحسب بل لأن هذا الولد الذكي محظوظ بحيث أنه لو فكر أن ينط من فوق قمة الجسر إلى قاعه الخراساني فلن يصاب بخدش واحد . هذه الحقيقة ذات الحواشي الأسطورية يكاد ينطق بها قعر الوادي وقاع الجسر وأشجار المكان المحيطة بالضفتين الشامختين . لن تصدقوا حتى لو رأيتم . تلك من معجزات الوادي !

أكاد أقول أن قاعه الإسمنتي الفائق القوة سوف يتحول بقدرة قادر إلى فراش وثير من فرو القطط له طراوة كطراوة حضن الأمهات يمتص الصدمة وينجي الصبي .. كل هذا قد يحدث لأجله ، ولد عنيد طويل دائماً ما يحلم بالتفرد والتميز بأنانية مفرطة لا حد لغرورها .. مر أمامي متجاهلاً وجودي فتجاهلته بدوري كأني لم أره .. كأنه لم يكن ! لم أعبأ به ، ولم التفت إليه .. كنت أراه شبحاً

من غبار يثير زوبعة ذات شر ، ويعكر أحياناً المكان النظيف المغسول بالضياء .. مرات عديدة ، ويمكننا القول أنه يلونه أيضاً و يبعث فيه من قوته ما يجعله ينتفض ويمحق الخمول . الصمت يحفر أخدودا عميقاً في ما بيننا . لا مفر من أن استّحت قلبي على الصبر ، وعقلي على الخمود ونسيان النتائج والامتحانات ، والأمل والرجاء والنجاح وتخطى هذه العقبة ، ربما أصل حيث أريد . ولكن مهلاً : هل تعرف حقاً ما تصبو إليه أخيراً ؟

تململ الممتلئ ونظر إليّ كأنما كان يود أن يفصح . يود أن يصرَح ، ويتمنى أن يبوح بشيء يفرغ ما في جعبته ، يفتح فمه المليء بالكلمات . لكنه يبتلع ريقه وكلماته ويلتفت مبتعداً بوجهه عني بعد أن يقذفه (طويلة التيلة) بنظرة من نظراته الصارمة التي كانت تتبعه وتقيد حركاته سكناته وترقب حتى اختلاجات شفتيه . أبتعد الطويل باتجاه السياج الأخر ونظر أسفل الوادي دون أن ينحني بجذعه هذه المرة . كانت نظرة خاطفة رفع بعدها عينيه باتجاه الجسر الإسمنتي البعيد المستباح من الناس والسيارات والعربات التي تجرها الخيول . والعربات التي تجرها الحمير .. والذين يمشون مشي الغزلان ، والذين يمشون مشي البغال . الذين يجرجرون أيامهم سوداء وبيضاء وأصفرٌ لونها وقاتم مثل زفت الطرقات ، وكذا من يسبحون عبر حلم يترقرق .

التفت باتجاه المزارع بعد أن رسم للجسر صورة كرتونية حنَطها في قلبه ومضى ، قفز الممتلئ ومضى وراءه وهو ينظر إليّ مرة ، وإلى صاحبه مرة . كانت نظرة ذات معاني تقول في ما تقول : أعذرني يا

صاحبي فاني مجبر أو أنها كانت تقول مقهور .. لم أقراء الكلمة الأخيرة بشكل دقيق ، حتى أبتعد وعيناي تتبعه حائرة ومستاءة .. مضت وراء الخطوات الثخينة حتى غيَبها انحدار الطريق .. حوَلت عيني باتجاه السماء : كأني أشكوها آه ؟! ممن ؟ من عمري الذي ضاع بين الجسر والوادي .. من هاذين ! من الامتحان .. من الزمن .. من مدرستي ، وكتبي ، وسجائري ! أم من تخاذلي وتعاستي ، والمرارة التي تستبيح عقلي وقلبي وتخلف أثارها الدامية في فمي وحلقي ؛ المـرارة يا صعلوك .. أين الدخان ؟؟ أين ذاك المعتوه ؟ حتى أنسى وينسيني بتبغه . وحكاياته . وكمانه .. اختفى هو الأخر ! ذاب مع الشمع الذي اشتراه أمس من دكان (التواتي) ، وأشترى الخبز الذي لا يذوب ، لكنه يؤكل ؛ فهل أكلوه .. هكذا هو عندما تحتاجه يتلاشى .. عندما تشتاق لموسيقاه النشاز وشغبه ومشاكساته يتبخر كدخانه ..

آه حارة كالجمر ،. المرارة مرة أخرى ..هل أشكو { للرب } حالتي . هل أشكو إليه من دنياي أم أشكو من هؤلاء ، وأولئك ، من الناس ، من قلبي الغريب ، والأحمق على رأي ذاك المدمن .

قفزت كالملدوغ وانعطفت باتجاه الوادي .. وانحدرت في خطوات واسعة والقيت بجسمي فوق رماله الملتهبة تمرغت فوقها كالحصان .. تمرغت تمرغت تمرغت حتى اختلطت رماله وحصاه بثيابي وعرقي وتغلغلت بلحمي وكادت تختلط بدمي . لم يشفي غليلي الصراخ ولا العويل ولا الدمع المالح الذي أنحدر عبر وجنتي وأختلط بتراب الوادي .. حتى بعد أن رد على عويلي بعويل وصراخي بصراخ أشد .. رد الجسر الصلد المطروق ، والجسر الحديدي المعزول .. ردت

الغابة بأشجارها الباسقة.. والذئاب بأصواتها المولولة .. ردت المزارع القريبة والمزارع البعيدة .. رد البرتقال والليمون والزيتون والنخيل ، وكل الأشجار المثمرة ، والأشجار التي لا تريد الإثمار ، والتي لا تستطيع الإثمار .. حتى السواقي التي جفت والتي أبتلع الطين ماءها ، والبئر وغرفة الطاحونة الهوائية المظلمة المبنية بالطوب الأحمر التي سكنت بحذاء السحب وحدها الطاحونة لم ترد ، وحدها لم تصرَح ، وحدها لم تدلي برأي . هل لأنها نائمة هناك في الاعالِ وحيدة معزولة ومنسية .. لا . لا شك أن طنينها غير الطنين وغناءها غير الغناء ، حتى رقصاتها مع الريح مختلفة ومتميزة لها وقع استثنائي .. استندت إلى جدعها الحديدي وأنا أميز من الغيظ فرفت الأجنحة كأنها بي مرحبة ، وبدأت تدور تدور تدور رويداً رويداً وعلى مهل المهل أحسست برعشة باردة تتوغل عبر لحمي المتوهج أحسست بصفق الريح للأجنحة ، رفعت رأسي إليها كانت متعالية شامخة فابتسمت عيناي لمرآها قبل فمي ، واهتزت مشاعري مع دورانها الأنيق ، كان دورانها سمفونية مزيج بديع من الرقص والغناء ، والغناء والرقص . كان لغنائها وقع الحزن في النفوس ربما لعزلتها وإهمال الناس لها بعد أن استغنوا عنها ، كانت قبل ذلك مبجلة ، واليوم ها هي مهملة يعبث بها الريح وينهش روحها السكون . لهذا لم ترد ولم يعتريها شيء تجاه هؤلاء الذين نسوا وتنسوا جميلها أيام فتوتها وزمانها الناهض .. لم يرد جسرنا القريب الحبيب أيضاً . الذي طالما كان يواسيني ويحتويني ويخفف عني وطأة الوبال ، بل أنه قال شامتاً :

" هه ، تستاهل ! "

ما الذي غير رأيك وأنزلك هذه المنازل أنك أشبه ما تكون بمن أحتقر نفسه وحفر لها خلف قيعان الحقارة حفرة طمرها فيها .. فنبتّت من الحفرة شوكة .. أتود أن تكون نفسك شوكة في حلقك ...

- " أنت وحدك .. أين المعتوهين أصحابك ؟ "

خلته صوت الريح أقبلت تطرق سمعي بالعويل ، وتشمت مع الشامتين وتهزأ مع المستهزئين وتصرخ في وجهي بجارح الكلم .. لكنه قال في ما قال :

- " أنت وحدك .. أين المجانين أصحابك ؟؟ هه "

رفعت رأسي .. فتحت عيني .. والدهشة تملء فمي . فالريح لا تعيد الجملة مرتين .. لا تعيدها أبداً مرتين ! وإن عادت فهي رجع صدى واهن ضعيف لا يكاد يُسمع لا يكاد يبين .

فركت عيني اليمني ، لم تكذبني ؛ ظل خيال غريب يتراقص فوق رأسي . لم أجرؤ على لمس عيني الشمال حتى يبقى الشك في ما رأيت ولا يصير هذا الشك الأسود يقينا ويحيل نهاري قرف

وعفونة ؛ أن تبقى بين مطلسم مثير خيرُ لك من أن تقطع الشك بيقين كهذا . أجارنا { ألله} من أصوات الريح الجالبة للمصائب وراءها ؛ تراخت مفاصلي وتجمد الدم في رأسي وبحلقت عيناي كلتهما في الوجه الغريب الذي أقترب مني وأبتسم ؛ في تلك الابتسامة اندلاع السخط والبلاء وصوت كأنه الفحيح تفوح منه روائح الشرور كلها كلها علاوة على الإثم الصريح ..

الوبال القاهر ، والقرف المريع ...

- " أيه . يا رجل الرمال .. ترى ما الحكاية ؟!! "

كانت هي صوتها ووجهها والشر الذي تنطق به عيناها المجرمتين ، كانت هي بشحمها ولحمها وأشواك رأسها المدفونة تحت قبعة صوفية صفراء متأكلة .. متأكلة ؛ يا ربي ما الذي أكلها !

" يا إلهي ما الذي جاء برفيقة إبليس إلى ديارنا ؟ أي جحيم قذف بها إلينا ؟ " قلت في ذات نفسي التي صدمها ظهور هذه الآفة .. يال هذا النهار كان نحساً من أوله وقفلُ بشر ! شر ؟ شر الشرور كلها أن تكون هذه هنا .. حاولت أن أنتفض أن أتخلص من حصارها .. أن أزحزح جسمي من تحت قبضتها .. من سطوة الشر الكامن في عينيها الساحقتين فإذا بيدها وبحركة بارعة تخرج حربة ما كدت أراها حتى كان نصلها فوق صدري .. ما كدت أري لمعة السكين حتى شعرت بوخزتها تخترق القميص إلى اللحم . رفعت بصري إليها والدهشة تملء أنفاسي المتلاحقة ، وغضب أسطوري صار يشتعل في عيناي المصدومتين .

- " هل غضبت يا حشرة ترقص على الرمل ؟ " قالت ؛ وابتسامة صفراء كريهة تلوح فوق شفتيها الداميتين واردفت بحقد بكره بعفونة:

- " أظنك غضبت آه . لا عليك ولا تخف ! لن أغرس هذا في صدرك ..أتعرف لماذا ؟ لأني لا أحب أمثالك من البؤساء أحتقرهم وارثي لحالهم ، وعار عليّ أن ألوث يدي بدمهم . "

نظرت إليها وصدري المحاصر وراء سكينها يغلي فأحسست

بحرارته .. هزت نصل السكين ثم تباهت قائلة بعنجهية :

ـ « أخبرني ما السبب الذي جعل منك كلباً ضالاً يتمرغ فوق الرمل ! قل لي لماذا كنت تتمرغ ؟ هل هي عادة وثنية في جماعتكم أم هو مرض تصابون به عندما تكون الشمس في وضع عمودي فوق واديكم هذا ذي الرمل المخلوط بروث الأحصنة ؟ »

حاولت أن أرد وما كدت أفتح فمي حتى حوّلت حربتها إليه .. كانت صفحة السكين باردة كالثلج ، وكانت شفتاي ترتعشان . أحسست بحدّة الشفرة الرهيبة .

ـ « آهاه .إيك أن تفتح فمك الأبله بكلمة . سوف أشرّحه : هكذا . هل لك في تجربة ؟ لا بأس بتجربة صغيرة ! أنتظر ! لن تنال منك وإن مرمرة كبرياءك .. هل سحقته حقاً ؟ » جرحتني في ذقني بنصلها فأدمته دون أن يرمش لها جفن بل كانت تبتسم شامتة .. كانت تعبث بي بنت الأفاعي .. كأني كنت دمية بين يديها وتحت سطوة خنجرها .

ـ « أرك لم تخف . هل تفضل تجربة أخرى أكثر صلابة ؟ في رأيي أنا يجب أن تكون هنا عند وتر الرقبة ! أفضل عمل تقوم به لو أردت نصحي أن تصمت ، ولا تحاول أن تفتح فمك الكبير هذا .. أفضل ما تفعله لحياتك أن تغلق فمك بحفنة تراب أو أن تضع فيه حجراً كهذا ..هل هو كبير؟ حسناً ضع هذا الصغير فهو يناسب سنك ، على مقاس فمك تماماً . عليك الآن أن تخرس كما لو كنت أبكم ! من يعرف الكلام في بلاء دائم خاصة في وجود خنجر مميت فوق غصن الرقبة وفي يدي .. أحذر من هذا اللسان ففيه موتك .. فيه موتك أيها

الغر السقيم إذا لم تقيده بحبل متين من الخوف والطاعة .. إذا لم تسجنه في فمك وتضع عليه مئة حارس وسجان لأنه خطير ومميت وإلا ما كان بهذا اللون الأحمر !

أين جماعتك التافهة التي تتبجح بها كأنهم من ذوات الأجنحة ؟ هل تركوك تبكي وحدك ؟ لماذا لم يأتيك أحدهم ويشاركك هذه المناحة فوق الرمل الساخن حتى ولو على سبيل المواساة . ألا تواسون بعضكم . يبدو أنكم مثل الذئاب ! ألا تعرف طبع الذئاب ؟ من يسقط منهم يأكلوه . يأكلوه آه ، هذا طبعهم ويبدو لي أنكم مثلها تماماً ، وقد اعتقدت أن الذي يجمعكم حب حقيقي ! طز . فيكم واحد واحد . أنكم أوغاد مثل أحقر الذئاب .. إذا لم تخبرني بخبرك صحيحاً دون نقصان ربما أغضب ، وإذا غضبت فسوف يغضب هذا ، وتغضب هذه . هذا خنجر كما ترى ، وهذه قبضة .. والقبضة قد تحرك الخنجر إذا ما غضبت ، وهو يلبي بأسرع مما تتخيل في مثل لمحة من عينك الشاردة أو رمشه من جفنك الذي يتمتع برقة لذيذة .. هناك سؤال يحيرني : كيف أكون أنا أنثى وأنا مثل عنزة في فلاة شحيحة وأنت ولد ولكنك مثل غزال يتمخطر حول بركة من ماء معين .. هل تستطيع أن تجيب على هذا السؤال المحير ؟ من يدري قد أساعدك لأجل ذلك ألا تعرف المثل الذي يقول ؛ (يجعل سره في أضعف خلقه) ، أخرس أيك أن تتفوه بحرف . لا أريدك أن تجيب .. لا . لا . لا أريد أن أرى أسنانكَ .. لا تفكر في أن تتفوه بحرف .. اتفقنا أن تكون أبكم ! ألم أمرك بذلك ؟ أخرس تماماً حتى لا تضر نفسك أيها الصغير الأملس .. لو كنت مكانك لوضعت حفنة كبيرة في فمي . أعني فمك الصغير هذا .. لأول مرة في حياتي

البشعة أرى طفل قصير بفم صغير ، ألا تأكل حتى يكبر فمك وتطول قامتك قليلاً . أمس رأيتك تلعب كرة السلة . كيف سمحوا لك باللعب معهم !؟ كنت تلعب بشكل مميز هكذا وهكذا كأنما أنت جدى يقلد الثعالب .. كم كُنت خائفة أعني خائفة من أن يدوسوك بأقدامهم أو تضيع بين أرجلهم .. وأُحرم أنا من مثل هذه المتعة . "

ما كان ينبغي لي أن أفعل هذا في وضح النهار ؛ صدقت الشيطانة ، إني كما وصفتني .. ماذا سيقول من راني أتمرغ كالملبوس بجن ؛ جنّ الفتي ورب الكعبة . هذا إذا ما كان يعرف الكعبة .. أما من كان مثل هذه فسوف يصدح على الملا : بأن هذا الأحمق احتوت روحه الأبالسة ، وقد كان قبل ذلك على مثل الجنون الذي ترون ؟ كنت أفكر و تكاد أن تتمزق مني شراييني كأنما أصابها العطب .. أصفرَ لوني وجف حلقي وتحنطت خلايا جسدي ولم يتبلد الحس ففي داخلي مشاعر مختلطة علاوة على أني خائف من هذه الشيطانة . فيال كرم السماء إذ أنصفتني

فأمطرت عليّ اليوم بهذه التي لا تضاهيها الفظاعة ، ولا الكوارث، داهية الدواهي .. هذه دعوة أمس قد استجيب لها . يا ليتني دعوة باختفائها ، بذوبانها . بتلاشيها عن وجه الأرض ! آه ألم أقل لك بأن لا تدعو السماء .. ما هي إلا عقوبة ! عقوبة يا أحمر الخدين على عدم امتثالك للنصح أيها الجاهل الغافل .. أنها مخلوق مثلنا تماماً لا تزيد بل نزيد نحن عليها بالتكليف .. ألم تدرس هذا في المدرسة أم أنك رسبت في مادة الدين أنت أيضاً ؟؟ كأنها قرأت همهمات أفكاري ، اللعنة التي جاءت تمشي فوق سيقان الكوارث ... فقد سألتني

السؤال الذي أكرهه :

- " هل كنت تتمرغ لأنك رسبت في الامتحان ؟ هه . يا لك من ضعيف ! وما الذي سيجري في الدنيا إذا ما رسب أحد عبيد المدارس . لو كنت مكانك لما تحركت فيّ شعرة واحدة . "

كأن هذا الشعر الذي يعلو رأسها يمكن له أن يتحرك في يوم من الأيام حتى ولو أمطروه بزوابع و أعاصير الدنيا كلها . قلت أنا في نفسي المحاصرة. وسألت وهي تختبر عقلي المفتون بالهواجس ، ثم أبعدت خنجرها عن صدري والتفتت وهي تشير إلى الجسر ، أشارت إليه بأنفها الأفطس ، واردفتني بجملتها الأخيرة قبل أن تمضي إلى جهنم :

- " أنظر هناك ؛ أحمق آخر من جماعتكم التافهة قادم إليك .. لعله سوف يخبرك بالنتيجة ؛ أتريد أن تعرفها ؟ يبدو أنه سوف يقول لك أيها الطفل الصغير الوديع مثل فرخ الحمام : هه . قد نجحت ! عليك أن تتذكر هذا اليوم ؛ أما أخبرتك أنا بنجاحك ، فلا تنسى وتذكرني في الحلم .. "

لقد كان محمود هو القادم ، كان يجري نحوي ويلوح بيديه لأبد أنه استطاع الإفلات من الحصار أخيراً وجاء يقدم فروض الواجب .. فروض الاعتذار من قلبه المحب .

- " هل سمعت ؟ " قالت بنت إبليس

لم أرد . ولم أسمع ... - " هل ارتحت " قالت بنت العفاريت

- " لم يذهب تمرغك وصراخك سدى " بمثل هكذا جملة تأجج

الدماغ أردفت سؤاليها بنت الدواهي .. ابتسمت بعدها ابتسامتها الصفراء ولسان طغيانها يهيج أمام وجهي مهدداً ؛ أنطق إن استطعت . وقفت مثل صنم يتقد ثم مضت بمثل السلاسة التي كانت تضع بها حربتها على عنقي حتى كادت أن تحز وريده وتقتلعه من مكانه لولا ستر { الله} ، قالت وهي ماضية ويدها الصدئة تضع الحربة الملعونة في جيبها الخلفي :

- " سوف ألقاك مرة أخرى يا فتى الرمال . "

هـذه كانت تحيتها الأخيـرة قبل أن تـذوب في الظلال ويغيبها القنوط .

وصل محمود أخيراً وهو يلهث وعيناه تتبع خطوات البنت التي كانت قد صارت خيال يتلاشى ويتفتت ويضمحل . وقف أمامي ونظراته معلقة في أفق الرمال وسأل :

- " من ذاك ؟ "

هززت رأسي محاولاً تجاهل السؤال الذي قد يفضح معركتي الخاسرة واندحري المميت ، فليس لي القدرة على تحمل المزيد من الهزائم .

- " ذاك الذي مضى ؟ "

هز رأسه دون أن يحوّل عينيه عن الأفق الذي سكنه السراب .

- " خيال ! "

أجبته وشريط طويل من الأحداث كان يمر أمام عيناي التي مازالت تقتفي أثر الخطوات التي سكنت ذاكرتي إلى الأبد ، وخلفت أثر في

وجهي ، وأثار كثيرة محزنة في بعض أنحائي وأجزائي ، ومواضع هنا وهناك تخلخلت وأصابها وهن صار لحمي يترجرج وأصابعي ترتعش

لم يمضى الوهن وأنا أحث التراب خلفها ولسان المرارة في حلقي ينطق بصوته مبحوحا جريح ؛ لا تعودي لا تعودي أيتها الآفة وغيبي خلف طيات الجحيم ..

- " خيال ! هل تهزأ بي يا أبن خالي ؟ "

- " تلك (عيشة بو راسين) "

- " بنت !؟؟ "

- " بنت ! " ابتسمت بتعب أزلي وما بي رغبة إلى مثل هذا ، وقلت وأنا أنظر إلى خيال اسود يغيب :

- " بنت كالشيطان . بنت كجهنم . بنت كالجحيم ! " .

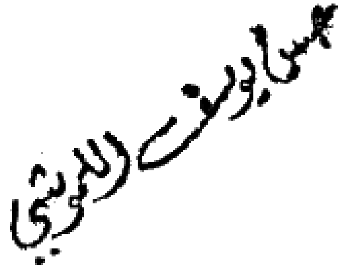

بنت إبليس

ـ « من قال أن ميدان الوادي حكر على جماعتكم الفاشلة وأنه لا يحق لنا أن نلعب فيه .. طز فيكم واحد واحد من هذا الطويل المتبجح إلى ذاك القصير الملعون . »

بهذا التحدي المخزي الذي قذفته (عيشة قباضى) في وجوهنا ونحن كأننا نيام من فرط الدهشة أو كأننا موتى من شدة الذهول .. صعقنا حتى ونحن موتى ونيام ! إذا كيف تتجرأ بنت حتى ولو كانت وعاء شر ممتلئ حتى حافته بالطغيان .. وقد كنا عصبة متينة ولا ينقصنا الشجاعة على أي حال ، على الأقل هذا رأي بعض الناس فينا كما أننا كنا نرى في أنفسنا القوة والصلابة الكافية لصد مثل هذا الهدر من أي كان .. ما بنا من الخذلان والهشاشة شيء بحيث نسكت على مثل هذا الضيم . ولكن هل كنا حقاً بهذه الصلابة التي نعتقد في جماعتنا المكومة خلف رمل الوادي وفي قعره البطين المتسع الذي ندعي ملكيته ، وهو مشاع لا يمكن أن يملكه أحد من الناس ، وتحت جسره الصلد الذي كان يصارع السيول الجارفة فتصرعه في كل مرة ، وفي كل مرة يعاد بناؤه فيدمره السيل العنيف حتى كان الصرح الأخير الذي صمد حتى الألفية الجديدة ـ سيدمره البشر هذه المرة كما دمروا تلك الجنان الرائعة لإنشاء مسارب النمل ـ لا لأنه

أكثر صلابة من سابقيه ، ولكن لأن السيول انتهت وانقطعت لا بفعل الإنسان وحده الذي حجزها خلف سد عملاق هو سد (وادي المجنين) ، ولكن لأن ضرع السماء أيضاً لم يعد يجود بالماء النفيس مثل تلك الأيام الخيّرة لأن الناس غير الناس والزمن غير الزمن ..

أما اليوم آه أيها الجسر الحبيب النظيف يا رفيق طفولتنا وشبابنا يا صديق الأمسيات الجميلة والعشيات الرائعة التي كنا نجتمع فيها تحتك محتمين من القطر الشديد أو الشعاع الصارم ..

هل يمكن لأي منا أن ينسى ذاك الزمن الباهر ؟؟

حتماً لا ! وإن نسى فذاك مغروس في لحمه ، يجري مع دمه ، مسكون في فؤاده .. كانت حفلة رائعة .. دعهم يضحكون اليوم . دعك من ذلك كان كذلك بوجود هذه الأفعى .

أتشمت فيهم ، ألم تكن معهم . أني إذن أتشفى من نفسي ، وهي أيضاً تتشفي بي .. كنت أنظر إلى تلك المتوحشة وإلى عصابتها الحمراء فوق رأسها الذي لا يبدو له أي ملمح يدل على أنه رأس فتاة (أين الطاقية الصفراء يا ذات الخناجر) في وجهها كم أخدود حفرت فوق خديها وفوق أحد حاجبيها بسكين متين ، كان أحد هذه الخطوط غائرة في لحمة الوجنة .. نحن لم نتكلم عن عينيها بعد . لا تقل عيناها . هذه ليست عيون ، أنها عبارة عن حفر ؛ أحد هذه الحفر مطفأة أو تكاد ولا يبين وراءها شيء ، والأخرى باهتة وأن كانت تطلق الشرر.. أحقاً هذه أنثى ؟! ، أنت تهزأ بعقلي ، ولا يجدر بك أن تفعل في مثل هذه الأيام التي ارتحنا فيها من تلك الملعونة ..

أتذكر؛ أذكر ولكن أنظر إليها تمعن فيها هي هي الشؤم نفسه الذي أقبل علينا زمان .

" لا شك أنت تخدعنا. تلك وباء يمشي على قدمين .. كيف سمحنا له أن يطأ وأدينا المحبوب ، ويلوث وجوهنا ، منظر بغيض آخر. أنك مثلما تنظر إلى لعنة ! وتحس السم يسرى عبر بدنك ،

هه فضحتنا (عيشة بو راسين) . ها هو الاسم الثاني للبنت التي قذفت في وجوهنا قفاز التحدي الملوث بلعابها والذي كاد ينهي صرح جماعتنا المنفوخ (ع الفاضي) .. بمجموعة عريضة من الأسماء الموشومة كما وجهها وذراعيها بالأفاعي والخناجر والأنياب كأنها قرصان من أعالي البحار المظلمة ، مخلوق من طراز غريب لها رأس من الأمام ذكري الملامح والصفات لو أنك تطيل النظر إليه فقد يتراءى لك فيه قرون مرعبة متحفزة للانقضاض ، ورأس من الخلف أنثوي ملئ بشعر اسود كليل جهنم غليظ وملفوف ومتداخل عندما تراه أول ما يتبادر إلى ذهنك تلك الأسلاك البغيضة والرهيبة التي كانت تطوق معتقلات الطليان .

لها ضربات رأس ليس لها دواء فيما أعرف فإذا ما كنت محظوظاً وأكلت واحدة فسوف تنام في بيتكم العامر ما بين ثلاثة أيام إلى أسبوع كي يتم شفاؤك من أثر الضربة الساحقة ، وما بين أسبوع إلى عشرة أيام حتى تستطيع أن تمارس ما كنت تمارس من أعمالك المعتادة وتظهر نفسك للناس كبشر سوى لا تسربله النقائص والأقاويل . أما ضياع أثر الضربة على جبهتك فأنك محتاج إلى خمس سنوات

إذا ما كنت من أصحاب الحظوظ أما إذا لم تكن من أولئك العشائر فأنها سوف تبقى معك ما بقيت فوق وجه الأرض ولا تختفي إلا عند اختفائك عنها وبالتالي ترتاح أنت من هذا الأثر اللعين وترتاح الأرض من ثقل زائد عليها (واللي يموت من الشياطين يخفف على الملائكة) ، نصيحتي لك في هذه الحالة أن لا تفكر في هذا الأثر اللعين الذي خلفته فوق جبهتك دكتها العنيفة المرعبة ، ولا تفكر أبداً في أن يفتضح أمرك بين الناس الذين كانوا يعتبرونك رجلاً حتى تلك الفضيحة التي لم تكن في حسبان العدو كما لم تكن في حسبان الأصدقاء طبعاً ؛ هذا إذا ما كانوا أصدقاء لا ثعالب تدعي الصحبة وشيء آخر لا يعرفه إلا النزر اليسير من الناس اسمه الوفاء ؛ عملة نادرة في هذا الزمن . لا بأس هؤلاء لم يعرفوا ما عرفت ولم يروا ما رأيت ولم يأكلوا ما أكلت وإلا لمات بعضهم من الكمد ، وبعضهم من الصدمة ، وبعضهم من العار . وبعضهم يصبح ويمسي ولا ضير ..

" وأنت لما لم تمت !! "

ثم وإن خلّفت تلك الضربة المشؤومة فوق جبهتك أو في غير مكان من أنحائك المنكوبة ، أيما ندوب فاحسبها من أثار الحروب ، وأنسى لابد أن تنسى أنها أثر مدمر من أثار رأس (عيشة بو راسين).. هذا كله يحدث إذا أعارتك تلك البنت بعضاً من اهتمامها أما إذا لم تلتفت إليك واعتبرتك كحشرة حقيرة لا تكلف نفسها عناء النظر إليها أو أنها لا تعتبرك ولا تراك أصلاً وكأنك غير موجود على وجه البسيطة . ما تراك تفعل عند تلك الساعة المنحوسة وغير المسجلة في أيما خانة محسوسة أو متوارية ، حينها تكون (الروسية) من رأسها

الحديدية مطلب يهوّن ما وراءها من ألم .. حتى لا تصبح يا سيد الفتيان نكرة في نظر بنت الأبالسة ، ثم ؛ أليست تشبه الغولة ؟ لكني لا أعرف الغولة .

- " الغولة مثل العفريت .. "

- " العفريت الذي في القمقم ؟ "

- " لا ، ذاك الذي يسكن التنور . "

- " آه ، عرفته . "

قلت في نفسي ؛ هذا من العفاريت .. فأنا لم أسمع في حياتي بعفريت يسكن التنور ، لكني أجزم أن هذا الهذيان من أثر وخزة الأمس .. أصمت حتى لا يسمع بها أحد فتكون طامة على رأسك أرجو أن تصمت هي فلا تفضحني ، في الحين سوف تسبح مسخرة لأولاد الحي والجيران والشلة التي تتصعلك في وادينا المتيم بالألغاز ، وتصير أضحوكة في الهضبة الشرقية والهضبة البدري وبلوزة وشيل الزابطية ، وتقسيماتها الأخرى من - البطاطا وبن ذخيل وفنكيارو وبن ساسي - الذايع الصيت ، فماذا تختار قرع طبول الحرب ؟ أم تفضل رفع راية الوهن ؟ بعضهم يتمنى هذه ، وبعضهم يفضل تلك ، أما أنا فأني أختار أن لا أرى هذه (الشيطانة) في أي يوم من أيامي أبداً أبداً . ولكن كيف ؟ وهي أخت هند وشتان بين هذه الداهية وتلك الباهرة .. شتان بين الأختين . الحل الوحيد في ما أرى ولا حل في ما أرى غيره .. أن تنزل فوق رأسها الحجري صاعقة ماحقة تمحى أثرها إلى أبد الأبدين ، ونرتاح نحن والدنيا !

" ولكن متي ؟ أنتظر وجدت لك فكرة ! حلاً آخر بسيطاً لا يكلفك شيئاً على الأطلاق وتكسب فينا أجر على كل ريح ؛ أقتلها ! "

" أنا ؟! لا أستطيع قتل نملة . "

" أقتلها ولو في الحلم ولو في الوهم ولو في خيالك ! وأسفح دمها هناك فوق الاسفلت . لا ترتكب جريمتك هنا .. أعني قصاصك لا يكون هنا في وادينا .. اسفح دمها الأسود بعيداً "

في ذاك اليوم الأغبر جاءت إلينا كالصاعقة المدمرة التي لا تبقى ولا تذر في حزامها الأسود العريض خنجران أحدهما طويل كالسيف والآخر عريض مثل بالطة مغولي متحزم بالويل .

ولأني لا أفهم كثيراً في السيوف وفي الخناجر فسوف أكتفي بهذا الوصف ، ورغم ذلك أعود وأقول أنهما مرعبان .. جاءت إلينا تود لعب الكرة وهي داهية أخرى فهي لا تعطيك الخيار في اللعب معها ولا الخيار في الابتعاد عنها .. و من عجائب الصدف أنها بارعة في لعب الكرة تتلاعب بها كبهلوان كما أنها داهية في اللعب بالخناجر و بالسيوف وذات مواهب أخرى مهلكة .. وأنت في هذه الحالة أمام أحد أمرين أما أن تتحاشى اللعب أمامها أو الاحتكاك بها وهذا سيجرك إلى احتكاك من نوع آخر ؛ وهو احتكاك خنجر الحديد بلحمك أو الرأس الحجري بأنفك يا بطل أو أنك تختار أهون الشرور و تلعب كما يلعب غيرك ، وفي لعب هذا النوع من الرياضة احتكاك وتصادم وصراع سوف تكون هي الغالبة فيه لا محالة ، وسوف تسقطك أرضاً باندفاعها العنيف وبمحاولاتك تفاديها لأنها بنت ذات جسم رقيق

يسهل عطبه ـ هذا ما تقوله الطبيعة على الأقل ـ ولكن هيهات فإذا ما اعترضت طريقها سوف تمرر الكرة ببراعة بين قدميك ما في ذلك شك ـ لأن لها متعة خاصة في مثل هذه الحركات ـ وهذه لعمري فضيحة أخرى لا يقبلها أحد خاصة إذا ما جاءت من بنت ، ويفضل الكثيرون أن تحز رأسه بخنجرها على أن تمرر الكرة بين قدميه فتصير له سبة أبد الدهر ، وهو من هو في الملاعب الترابية ..

" فمن يتصدى لهذه الأفعى ؟ "

الكل يخاف الهزيمة . يخاف الفضيحة . الكل يخاف أن تمرر الكرة بين قدميه . والكل يخاف تلك الضربة الساحقة المنطلقة من رأسها الذكوري الذي يسانده رأس أنثوي صلد كأنه الصخر الأصم لا يقل عنه شراسة وعنف .

ذاك يوم . نعم .. يا له من يوم .. بغيض ثقيل مرعب ! ليس كالرعب الذي نعرف .. رعب كريه ليس لك حيلة معه . قد يجعلك تنهزم أمامها باختيارك تفر ما وسعك الفرار تبتعد تختفي ما

استطعت إلى ذلك من سبل الفرار والابتعاد والاختفاء والتخفي والطيران إن قدرت عليه.. هذا إذا كان لك عقل يفكر .. عقل يزن الأمور ويتفادى كل ما من شانه أن يجلب العار .

فحينما أقبلت نحونا كعاصفة هوجاء أو ريح صرصر عاتية أو كارثة أنصبّت من السماء أو شيطان انبثق من الغبراء لم يبق للرجاء حيلة ، ولا للسلام من موضع يفرد فيه راية للأمان والثقة ، ولكنها تأتيك كالقضاء مباغتة بحقدها مفاجئة بقبحها وسافلتها .

ـ لا تقل أكثرت بل قل قصرت .. وأنا من يوم يومي لا أعطي الأمر الجلل ما يستحقه من الرعاية حتى ينفجر فوق رأسي ويحرق مراكبي التي تحبذ السكينة ، وقفت أمامنا وضعت يديها حول خصرها المسلح ، وبدأت تحدق ـ في وجوهنا وجهاً لوجه من الشمال بدأت ، كانت لها نظرة واثقة متينة وصلبة كأنها كانت تسطو على من تنظر إليه ومن تنظر إليه تأتيه مقطبة الجبين تعصر قبضتها تحت شاش أبيض وسخ وتلوح بها أمام وجهه .. كانت تتنقل بنظراتها القوية ـ في ما بيننا حتى وصلت إليّ هزت برأسها وحدقت بعين واحدة يكمن فيها الشر كله ، كانت الأخرى مصابة بحول مزمن جاءتني تتمايل قائلة ـ في استهزاء : ما تفعل هنا يا صغير بجانب الكبار ؟ وقبل أن أبادر بالرد قالت : أنت هنا أيضاً يا فتي الرمال . أنا هنا يا فاتكة . قلت ـ في ذات نفسي المشمئزة ،التفت إليَ أفراد الشلة حائرين وسؤال يلوح ـ في العيون ؛ ألك معرفة بهذا الجنية ؟!

قالت عيونهم المحفورة تحت جباه متغضنة .. لم ألتفت بدوري ، تجاهلت الأمر .. وقد أحسست بطاقة رهيبة تستحثني أن أقفز نحوها فأهشم رأسها وأطحن عظمها ثم أقذف بها من فوق الجسر إلى مليون داهية غبرة .. ماذا لو بادرت إلى فعل ما أحسست به وفكرت ثم أقدمت وانجزت مهمة يستحثك عليها رمل الأرض وغيم السماء ؟ لا شك عندي أبداً أن هذا سيكون من الأعمال المجيدة ـ في هذه السنة إذ تتخلص حياتنا من داهية دهياء كنا نسمع عنها ولا نرها ...

لكنها تخطتني لما رأت (محمد الهادي) وكنت محظوظاً إذا نجوت

منها . نطت إليه كما ينط

(الكنجر) الفتى ، وفي قفزة واحدة صارت عنده العين في العين ، والوجه يوجه الوجه .. عبوسه مقابل استفزازها .. خطر لها خاطر غريب التفتت إلينا وهي تقول مثلما هي تتبجح :

- " هذا ولد شارعنا ! "

ثم التفتت إليه وقذفته بأسئلتها :

- " ألست تسكن القرية ؟ أنت تسكن القرية ، أنا أعرفك .. ما الذي جاء بك إلى هنا ، إلى هؤلاء .. ما الذي جمعك بأولاد المزارع ... ؟ إنهم لا يشبهوننا .. بشرتهم صفراء من أكل البرتقال الأصفر ... "

لن تستطيع أن تتصور كيف أنفجر المكان بقهقهتنا التي دوت في المكان كمثل القنابل لهذا النعت العجيب فانفرجت بهذا الدوى أجواء المكان التي كانت قد تلوثت بوجودها المشبوه .

كفاكِ في المرة الفائتة تركناكِ في هذه المرة نحذركِ في المرة المقبلة قد يحدث ما يحدث ، وسوف ننسى إنك أنثى . لن يكون الزمام سائبا في كل مرة ، سوف نشده على الرقبة أيتها الأفعى ،وسوف نشحذ السكين ، وسكينك هذا لن ينفعك كما لن ينفعكِ إنك بنت ! وتواريكِ خلف أقنعة المسخ التي تسربلكِ من قمة رأسكِ إلى أخمص قدميكِ سوف يرديك ، لم نشاء أن نكون

معك قساء ، هذا من شيم الرجال لو تعلمي أما وقد تماديتِ وتجاوزتِ حدوداً لا يحق لأمثالكِ من الحمقى تجاوزها فأننا نحذركِ في هذه المرة نحذرك من مغبة الاستهانة بنا ، وتحديك الأحمق .

سوف يفضح أمرك أمام الناس ويجعلك تتعرضين للمهانة ..

" من هذا شمشون زمانه الذي قال لها كفاكِ . قولوا له أنها رحلت منذ ساعة .. "

".. فإذا لم تغربي عنا فأننا سوف نجعلكِ مثل برتقالة عفنة ندوسها ثم نهيل عليها من قمامة الوادي بعد أن تسويها قدم (أبو الليل) الجبارة بالأرض وتسفح دمها المر .

" دم البرتقال ، تعني . أليس كذلك ؟ البنت رحلت من زمان يا أبله .. "

" يا أبله . تلك الآفة مضت ، ومن حسن حظك أنها لم تسمع كلمة واحدة مما قلت وإلا جعلتك عِبرة وأصبحت بفضل قبضتها تسبح في بركة دمك لا دم البرتقالة .. يا فارس الوديان والقناطر وما في حكمها .. "

اليوم الأول مر بسلام .. اليوم الثاني مر بسلام أيضاً . أما اليوم الثالث : ما أبشع نهاره . تكاثر علينا الأولاد الذين كانوا يترصدون مرورنا من ذاك الشارع الطويل مثل خرافة تسبح في جوفها الأشباح والعفاريت ومصاصو الدماء .

- " لا تخف فأننا أقوى منهم . "

نظرت إليه وأنا أقول في ذات نفسي لا تنصت لمثل هذا القول أننا في ورطة حقيقية فلو قبضوا علينا سوف يجعلون منا حكاية يتشدق بها أولاد الشارع .

- " أقوى ! لكنهم تسعة ونحن اثنان وحسب ... "

- " تسعة من حثالة الشوارع ... "

- " حثالة هه . أما أنا وأنت فمن صفوة العشير خاصة والفراغ يحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم ، وهذا فقط ما يجعلهم يهجمون علينا من كل ناحية ،لا عاصم لنا اليوم منهم أبداً فقد عقدوا العزم على الفتك بنا وقهرنا وتمريغ كرامتنا بالتراب . "

- " قلت لك حثالة . أنهم مثل علكة مضغتها صبية ثم ألقت بها في ذاك المستنقع النتن الذي أحتفظ به مثلث (بو المياه) من آخر سيل لوادينا الذائع الصيت . "

- " أنك لا تعرفهم . لو أنك عرفتهم لما قلت هذا .. "

- " أعرفهم وسوف تعرفهم أنت أيضاً عندما تراهم يفرون أمامك كذباب الخريف . "

- " هل تعرف أن معهم تلك الملعونة (عيشة بو رأسين) ؟! "

- " لا شك تمزح، وحتى وإن كان ما تقوله صحيحاً .. أنا لا يعني لي هذا شيئاً . أحقاً معهم تلك الآفة ؟!"

- " أنظر إليها أنها هناك بقميصها الأسود المعتاد ، وقبعتها الصفراء الغريبة .

- " أنها هي . هي . هي . هل تستطيع أن تجري . أجري بقدر ما تستطيع . "

وأنطلق لا يلوي على شيء حتى غيبه انعطاف الشارع قبل أن أفيق أنا من ذهولي وأحاول الهرب من هؤلاء الحثالة على رأي رفيقي الذي تركني وحدي أتخبط . جريت حتى انقطعت أنفاسي فتوقفت ألتقط

أنفاسا أخرى جديدة علها تمنحني بعضا من صفاء التفكير ، وأنا أنظر إلى الشارع علني أرى خيال ذلك المعتوه المنطلق مع الريح ، ولكن لم أرى لا الخيال ولا الريح

التي انطلقت به ، وفجأة أحسست برجة في رأسي أعقبها سيلان لسائل حار وثخين على أذني اليمني ورقبتي وياقة القميص الأصفر ؛ كانت قذيفة من حجر أصابتني على أم الرأس فشجته واندفع الدم ساخناً متدفقاً سائلاً على وجهي حتى أحسست بطعمه في فمي وضعت يدي على رأسي وامتطيت موجة من موجات الريح وركضت مثلما يركض ثعلب شم رائحة ذئب في الجوار فأنطلق يعدو لا يلوي على شيء هو الأخر حتى وإن كان الثعلب يعرف غاية المعرفة أن الذئب يعاف لحمه المر .. كان الأولاد يركضون خلفي وفي كل مرحلة يتخلف ولد منهم حتى وصلت الجسر ولم يكن يجري خلفي غيرها كانت تلهث ورائي مثل كلب مسعور بلا كلل ولا ملل .. ما كنت أحب أن تراني هكذا لذا تواريت بين أشجار البرتقال في المزرعة التي تحاذي الوادي .. خلعت قميصي ووضعته على رأسي فوق الجرح الرطب الذي مازال ينز دماً فاتراً أحمر حتى خارت قواي فتمددت تحت إحدى الأشجار إلى أن جاءني ذاك السلطان القديم وأخذني بين جناحيه إلى ممالك السبات .

الرنين

لماذا لا تفتح مخك وتسمعني .. أفتحه قليلاً قليلاً أقل من نفس (ارقيلة) في فم مستجد مازال يحبو في عالم (الاراقيل) .. اقل من تثاءب طفلة باغتها النوم وهي تناغي دميتها الجديدة .. بل أقل حتى من نظرة خاطفة من عين صبية مسحت بها الشارع والتقطت كل تفاصيله بدقة يصعب تفسيرها .. هل تريد أقل من ذلك ؟ لا يوجد على حد ما أعلم ، وأنت تعرف أن علومي ومعارفي وما أدعي فهمه قليلاً قليل بالمقارنة بما تعرف ، وأنت الفطن النبيه . لطالما قال لي عجزي وسوء تقديري أن أتعَلم منك تسيس الأمور بالشكل الذي يضمن سيرها على الوجه المول ، ولكن عقلي لا يصل في ذلك إلى مبتغاه ، وأنا في غاية الأسف إذ لا أستطيع أن أجاريك حتى وإن حاولت لأني لست في مثل شغفك المبهر بالمعارف وبملامسة سطح الأشياء سبر قعرها المبهم ، لن تنال طلاسمها إلا إذ سبحت في القعر الموحل وطرت في الأجواء المهلكة وخضت في القفر المرعب أنت وافكارك واحلامك ونبض الشرين العنيد ..

يا ذا المخلب الذكي الشره والمفكر عساك لا تزعل يا وحش .. كانت تعطى أُكلها في احايين كثيرة . وتصل بنا إلى بر آمنٍ رغم مظهرها الخشن . نعم . بر أمنَ يتدلى من خلاله حبل .. عنقي مازال يؤلمني من آخر حبل .. فلا تورطنا تحت عارضة تتدلى أسلاكها تحت

رؤوسنا .. لابد أن تفتحه مرة واحدة وأنتظر وإذا لم يعجبك قولي و هذا الرأي المفعم برؤياي الفريدة . فلك أن تغلقه بقفل خرافي عجز عن حمله خمسة من أشاوس المردة المدفونين في المصابيح والعقود والخواتم .. أغلقه فلن يخاصمك فيه أحد ؛ لا بشر ، ولا صنف آخر من الأصناف المتمردة والمبعثرة فوق أديم الأرض ، ولا حتى المحلقة فوق قبة السماء ، ولا حتى التي تجري تحت صفحة الجليد الأبيض الناصع كأنها تسبح أو تسبح كأنها تجري ، ومن تسول له نفسه الدنيئة محاولة التحرش بك أو التفكير مجرد الخاطر بالتفكير حتى في سلبك حق من حقوقك الخاصة أو الدخول معك في خصومات في محاولة للنيل مما تملك من مشاعر مرهفة وذكاء لماح ، أو حول ذلك أو حول غيره فما عليك يا عزيزي محمود ، والحالة هذه إلا أن تغرس أصابعك العشرة في وجهه وإن أردت أن تغرس العشرة الأخرى في بطنه أو نواحي أخرى من جلده فليس عندي أيما تعليق حول ذلك .

وفي هذه الحالة يمكنك أن تكون على ثقة بالغة بأني سأكون في صفك في مطلق الأحوال من مبدأ أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وليس هذا على وجه التقريب بل على الوجه المؤكد .. هل يرضيك هذا يا قريبي المميز ؟ أن أراك في ما يري النائم في المنام اللذيذ ؛ بأنك المعجزة التي ينتظرها سيء الطالع مثلي ؟ فما بالك وأنت كمن يدفع عن حياته شراً مستطيراً يكاد يبلغ منه .. لا بد أن تعرف وتتأكد وتتيقن بأني لن أقف مكتوف الأيدي .. وقبل ذلك وبعد ذلك عليّ واجب النصيحة .. وبعدها فنجدتي لن تتأخر عنك وسوف اتهيأ لملاقاة عدو يفترض أنه شرس .

واشمئزازه ـ أعني البائع ـ أن يقذف بنا خارج محله و خلفنا تزغرد أو تولول غاضبة أو فرِحة حفنة من الأحذية التي كان صديقنا الطيب يفاضل بينها منذ أكثر من ساعتين ونصف الساعة .. ولعله إن فعلها أن تفرح تلك الأحذية المسكينة بالحرية بعد الذي نالها من الغم من طول اعتقالها التعسفي ، ولعلها ستحزن من طردها مما كانت تعتبره بيتها وماءها الذي قضت فيه ردحاً من الزمن طال أم قصر ! من يدري بما كانت ستشعر به الأحذية في مثل هذه الحالة ـ أنا شخصياً لم أجرب ولو مرة واحدة أن أكون فردة حذاء ولا حتى زوج من الأحذية لذا فأنا لا أعرف أبداً ما هو شعورها وقتذاك ـ .

ـ " آهاه هذا حذاء جديد جميل يليق بي ليس مثل هذا القديم الذي أبليته في دروب الجبل الوعرة وأنا أرفس به كما يرفس حمار عمي الطاهر في شرَاك الوادي القبلي . "

ـ "هل ستحتفظ به ؟لو كنت مكانك لقذفت به إلى أقرب برميل نفايات، أو خذه إلى حمار عمك "

ـ " لا ؛ عندي له خطة أفضل ! "

ـ " أرجو أن لا تكون مثل خطة جوارب ليلة العيد .. أتذكرها لازالت معلقة حتى اليوم على أحد

أسلاك الكهرباء في شارع ستين . ذاك الشارع المسخوط الذي تحاصره البيوت الواطئة من الجانبين لكم أنا سعيد الآن وأنا أتذكر أن تلك التسمية كانت من ابتكارنا أنا وأنت ، أعطيناها للشارع المسكين الغارق في بؤسه ويأسه وحرمانه .. هل تذكر كيف ؟ أم أنك

دعنا نمضي من هنا .. دعنا نمضي لو تكرمت يا صديقي الطيب ، واتركنا من هذه الآلة التي على ما يبدو لي أنها غاية في الجشع فما تضعه فيها تبتلعه دون هوادة ثم تمد لك لسان طويلاً طويل يسخر من بلاهتنا ، ولن نجني من ورائها إلا أن نمرض .. ولا أظنك تفكر في بعج

بطنها ، واستخراج أحشائها القذرة إنك لن تمرض بداء حينئذ بل أنها سوف تمنحك فوق ذلك ؛ زيادة في الضغط ، ارتعاشا في العصب ، انتفاخا في القلب ، تصلبا في الظهر ، وتمددا في

الشريان الأورطي وأخواته الأخريات ، وحرقة في العين .. أيكفيك هذا أم أزيدك !؟ أظنه يكفي للإقناع ، أما إن كان إصرارك مما يدحرج الصخر فلك تحياتي مع تمنياتي بالنجاة من بعض هذه الأمراض ذلك أن النجاة منها جميعها أمر مستبعد يا عزيزي المفتخر بنفسه في محفل لا يتورع مثل هذا اللعين على النيل من كرامتك لأنه دونك يا سيدي دونك فأتركه ودعنا لا نضيع بشاشة الوجه والنهار ؛ في شارع هو كالرائحة للعطر والحلاوة للشهد لطرابلس المتألقة ...

لم يسمع قولي كان كمن أصابه مس .. جن جنونه وهذه الآلة تبتلع نقوده وتعطيه ظهر المِجن

فأعطاها من عناده رمح أشد صلابة كسرت كل التروس التي تحتمي خلفها الآلة التي أتعسها حظها بالوقوع في براثن (محمود) .. حسم أمره بالمواجهة معها وبدا فقد صار رأيي تحت فردة حذائه المطاطي الأزرق الجديد الذي أبتاعه اليوم بنصف ثمنه بعد أن ظل ساعة ونصف الساعة يجادل البائع حتى خلته من فرط تعجبه

نسيت كل ما جرى في ذاك الصباح الباكر ، وقد كان اقتراحك أنت ، ولعبتك أنت .. يوم قست عرض الشارع في تلك الليلة (ليلة الجوارب) وحينما وجدته أربعة أمتار من الجدار للجدار ألتفت إليّ قائلاً : يا لهذا الشارع المسكين ترى كيف للعربة أن تمر في مثل هذا الشارع إذا ما التقت

بأخرى في الاتجاه المعاكس ؟! فرددت عليك أنا قائلاً : يا لهؤلاء الناس المساكين ترى كيف يعيشون محشورين في مثل هذه البيوت الواطئة ؟ وماذا تراهم يفعلون عندما يفاجئهم السيل متدفقاً من أبوابهم القصيرة ؟ ليلتها قررنا تعاطفاً منا مع الشارع وأهله أن نهب من عندنا متراً زائداً لكل من الشارع ، ومتراً آخر للناس فيصبح عرض الشارع ستة أمتار بدل أربعة ، ونكاية في الفقر والكآبة والضيق قررنا أن نضرب هذا الرقم في عشرة فيصير شارع (ستين) ما رأيكم بتفكير بشابين صغيرين أردا الإعانة ولو بطريقة معنوية ؟! حتى وأن كان هذا ضرب من الخبل واللعب وسذاجة طفلين أحمقين ، أليست النوايا سليمة ؟ من يشك في هذا ؟ يا صديقي ذاك لم ترضعه أمه من صدرها حب التراب الذي جبلنا عليه .. يال الهضبة الشرقية كما عانت من السيول . وماذا سيجني الناس إن سمينا الشارع (بستين) أو حتى (بمائة) إذا ما ظلت بطونهم جائعة ، وجيوبهم خاوية . وبيوتهم متطأطئة من فرط البؤس تكاد أن تقبل الأرض ؟ وإذا ما قبلتها وهي في حال بؤسها ذاك فعلي الدنيا السلام ..عندها سوف تسوّيهم بترابها ...

فجأة كور قبضته الثخينة رسم بها دوائر في الهواء مهدداً متوعداً

ثم تراجع بيده حتى مستوى كتفه فخرجت أنا بنصفي الأيسر من كشك الآلة وتركت الأيمن يترقب الهجوم الذي بدا عندما انطلقت القبضة في اتجاه الآلة فخلخلتها وأرتج الكشك بعنف ، وتوالت الضربات فتمزقت أحشاء الآلة وتبعثر ما فيها : ويا هول ما فيها ، ويا عجب ما فيها ! وابل شديد أنهال كصاعقة من رنين ، صاعقة لها وقع الفرح ، انهارت الآلة وانهالت النقود فجأة ومن كل الفئات من ذات العشرين إلى ذات الخمسين إلى ذات المائة من الدراهم طبعاً ..لا أخلك تظنها دنانير !

لحظة الانهيار مخيفة ولحظة الانهيال مذهلة حينما قذفت الآلة من أحشائها الرنين الموعود أخذت أنا نصفي المحشور داخل الكشك تحت أبطئ وانطلقت في قفزة واحدة مبتعداً عن الانفجار . الذي لم يكن غير دوى انهمار النقود من فتحة صغيرة في أسفل علبة الآلة .. ذاك الدوى الذي أيقظ الفضوليين فلم تمضى ثواني قليلة حتى رأيت أحدهم قادما يهز يديه ورأسه ويمد لسانه ويسألني :

- " ماذا جرى ؟ ماذا هناك ؟ ماذا تفعلان ؟ "

- " هناك من هو قادم إلينا .. ألا تسمع الشرطي قادم نحونا .. أمسك السماعة . أمسكها وتظاهر بالحديث عبرها ، أنصحك بأن تتظاهر بالضحك أيضاً حتى تصل حد القهقهة ، وأحنى جذعك وأنت تقهقه فيبدو الأمر مثلما يكون طبيعياً تماماً لا تنظر باتجاهه مباشرةً ، وإن نظرت فلا تعيره اهتمامك كأنك غارق في حديثك المسلي والمهم في الوقت ذاته ، لا تنسا أن تستقيم

بظهرك ولا تبقيه طول الوقت في وضع الانحناء فيبدو الأمر مفتعلاً وسخيفاً .. صفق أيضاً إذا استدعت الضرورة .. إذا ما فعلت ذلك فلن يكون هناك أيما بأس وسوف نفوز بالنجاة من هذه الورطة التي أوقعتنا فيها من جرا تصرفك الأرعن .

- " أُصفق ! أنك تهذي . كيف وأنا أمسك السماعة ؟ "

- " ها . قد وصل فاصمت .. ولكن أسمع بسرعة هذه النصيحة الذهبية التي خطرت عليّ للتو ؛ ضم النقود في زاوية من زوايا الكشك وأجلس عليها كأنك تستريح من عناء مكالمتك المثيرة.. "

- " السلام عليكم .. "

فقلت في نفسي أول الغيث خير ! يبدو أن الأمور سوف تسير كما نشتهي فرددت السلام بأفضل منه قائلاً في رباطة جاش :

- " وعليكم السلام ورحمة { الله } وبركاته . "

- " ماذا يحدث هنا ؟ "

فقلت في نفسي أول الشرارة مطب ! تملكت نفسي وحاولت الرد عليه وفي ذات اللحظة فوجئت بمحمود يبادر بتنفيذ نصيحتي الذهبية ، فقد جلس في إحدى زوايا الكشك وجسمه يترجرج من الضحك ،وقد اختفت النقود من فوق أرضية الكشك ، ثم مسك سماعة الهاتف بين يديه وصار يخبط بها على فخده رافعاً رأسه إلى أعلى ، صدره يكاد أن ينشق من الضحك .. كان المنظر مريعاً وكان مدهشاً وباعثا على ضحكي أيضاً لولا أني اصطبرت كي لا أضيّع مشهده المثير ، ولكني انفجرت وكان للمسألة وجه آخر لا يقل إثارة

.. تعجب المتطفل مما رأى وسألني قائلاً :

- " ما باله يكاد أن يموت من كثرة الضحك ؟ "

- " كما ترى أنه يكلم أمه ويبدو أنها قد عرضت عليه أن تزوجه .. " قلت ذلك وأنا أحاول أن أخفي ضحكتي المارقة التي فلتت من صدري تلعلع .

- " هذا ! لا زال طفلاً ... " قال في غلو وفي غير ما راويَة .. استحى مما قال فصمت .

قلت مقاطعاً وأنا مازالت أحاول أن أكتم القهقهة :

- " يبدو أنه قد أحس بذلك ، وقد رد على أمه بأنه يريدها شقراء من بلاد (العم سام) لهذا فهو مضطر أن ينتظر عشرين سنة قادمة حتى يستطيع أن يجمع المال الكافي للسفر والمهر والإقامة هناك في بلد زوجته الشقراء المقبلة .. "

- " ولكن قل لي متى تم إصلاح هذا الهاتف اللعين فقبل بضعت أيام أختلس مني كالعادة بضعة قروش ، وقد أبتلع مني إلى الآن مبلغاً لا يقل عن ربع معاش شهر إن لم يزيد .. "

- " إصلاحه !؟ من يدري ؟ لعله كان يشتغل لكنك لم تعرف كيف تتعامل معه . "

نظر إليّ بعنين مندهشتين قائلاً ، وهو يحدق فيّ باستغراب لا يخلو من ريبة :

- " كأني لا أعرف . نعم لأني كنت جارا لهذا الكشك منذ ما

يقارب الخمس سنوات ، وقد استخدمت هاتفه هذا مئات المرات أن لم تخني الذاكرة . "

لم أعرف كيف أرد عليه استحيت وتجاهلت الموضوع فإذا به يفاجئني قائلاً :

- " يستحسن بك أن تنبه صاحبك إلى أن هذا الوضع المزرى غير لائق أمام الناس .. "

- " لقد نبهته صدقني لكن الفرحة غيبت عقله كمثل ذلك الفار الذي نجي من المصيدة فوقع في طريق هروبه على قطعة جبن خالها مكافأة له على شجاعته .. أظنك سمعت به فقد وقع في مصيدة أخرى في الطريق ربما عقاباً له لأنه تجرأ وتبجح ... "

نظر إليَ كمن ينظر إلى وغد يحاول أو يستخف بعقله .. فجأة أنحني بظهره باتجاه محمود قائلاً كمن أكتشف غابة من الفئران :

- " أنتظر . أنتظر . ما هذا الذي يبرق تحته ... "

- " رعاك {الله} . " قلت مقاطعاً وألقمته حجر من مخلفات البراكين واردفت جمالتي المبتورة قائلاَ في غير ما تدبر :

- " ربما من فرط الفرح عملها على نفسه .. أبتعد حتى لا تؤذيك الرائحة المقززة ... "

لم يبتعد بل مد يديه باتجاه القفص أعني الكشك فحوّلت وجهي بعيداً بينما كان هو ينحني ملتقطا قطعة نقدية من فئة الخمسين درهما (خمس قروش) التفت إليَ موجهاً سؤالاً غريبا :

- " ما هذه ؟ لا أعتقد أن صاحبك يفعلها على روحه فينثر نقودا

بدل .. يعملها على نفسه قال! "

ضحكت في سري حتى شعرت أن شريان في داخلي أنفجر ولم أجرؤ على إظهار ضحكتي التي كانت تحاول الإفلات مني لولا أني استطعت كبح رعونتها ولسان حالها وحالي يقول :

" يا ليت كنا صرنا مليونرية .. هه هه ها ، أضحكتني ؛ الشمس مشرقة وهي لا تسمع الأحلام

ثم ما دخلك أنت يا كلب ، هذه له وحده ؛ فأنت هربت وفضحك خوفك اللعين " ردت عليَ نفسي كما في كل مرة أخرج فيها عن الجادة بغلظة وشراسة ، وحالي كسير، وحظي الذي أعرفه علقم مثل الحنظل مر مر ، فقد أعتاد قريبي هذا أن يورطني فيها وعليَ أنا أن أفك سر الطلسم .. " أليس ذاك ابن عمتك ؟ " ردت هي في عنف ، ولعله الطمع الحقير .. سوف أنال حصة من الغنيمة الباردة . تنالها (في المشمش !) . يا ترى من أجابها وكان حصيفاً لعين ..

- " يبدو أن ما يلمع تحته غير ما أخبرتني ، ويظهر لي أنكما تخفيان أمراً أكاد أعرفه ، وإن كان الذي أفكر فيه فأني أهنئكما بذلك فخذاه حلالا زلالاً لا يشارككما فيه أحد . "

- " أتعتقد أنه حلال زلال كما كنت قد قلت .. "

- " أجل ولكن انطلقا قبل أن يراكما أحد الأوباش فتكون قصة أخرى لن نستطيع أن نخمن فصولها .. هيا ماذا تنتظر أخبر صاحبك المعتوه الذي ينثر النقود من أمعائه .. أن حيلته مكشوفة وبلهاء ، لابد أن يترك المكان في الحال . أم تراك أنت صاحب الخطة الأخيرة . "

حينما أشرت إلى محمود نهض عن النقود فصرخ الشرطي :

- " يا إلهي ما كنت أتصورها بهذه الكثرة .. يا إلهي ، ما هذا كله ؟ كيف استطعتما أن تجبراها على بزق كل هذه القروش ؟ لعلها الآن تعمل بعد أن فرغة أحشاءها ."

- " ربما لو لم ينتهى وقتها ؛ لربما تعمل ثانياً وتستمتع أنت بصحبتها من جديد . "

- " انتظرا ؛ لقد هشمتما الآلة ، الويل لكما إن لم تذهبا من هنا .. " سكت وصار يتفحص الآلة

واردف تهديده قائلاً ، وقد وصلت دهشتنا ذروتها عندما صرخ فينا ملوحاً بقبعته البيضاء :

- " هيا أجمعا النقود ، وانطلقا من هنا قبل أن أغير رائي وأحبسكما لإزعاج الناس ، وأتلاف الممتلكات العامة أيها الشقيان .. "

" هل رأيت أفضل من ذلك ؟ " كان قلبي يسأل ويداي تجمع النقود المعدنية وبجانبي محمود يغرف ملء كفيه ويضع في جيبه بينما الشرطي يبتسم وهو يستعجلنا . رد عقلي المخطوف من دهشة ترتعد من الفرح :

" لم أرى ذلك في حياتي .. وإن أعطاني { الله } عمرا فسوف أكتبها للناس - عن شرطي مرور لباسه أبيض ، وقلبه أبيض ، وفي كلامه بياض يسرى عبر الأوردة فيغمرها ود طافح بالمحبة وبشر وحنان لا لبس فيهما .. ما أن دخلنا الحارة وسرنا في الطريق المتعرج الذي يقود إلى المطعم المشهور حتى هدأت أنفاسنا المتلاحقة ، وقد

كان جرابنا مليئاً بالنقود الفضية التي غنمنها في معركتنا القاسية ضد الآلة التعيسة الحظ التي وقعت تحت سطوتنا وقد حسبت أننا مثل غيرنا من أولئك الذي استغفلتهم وسرقت نقودهم ثم ودعتهم متحسرين .. أما نحن فقد فزنا عليها وقهرناها ، واسترجعنا ما سرقته من الناس خلال سنين - من قام بذلك محمود وحده ولا فضل لك إلا الفرجة فلا تعطي لنفسك اهمية تذكر ، ما أنت إلا حقيبة يد فارغة محشوة بالقش - وصلنا حيث المطعم المشهور والفوز في ركابنا والجوع يستحثنا والرغبة الحمقى أن نسير ونسير منتشين .. لما صعدنا إلى الطابق الأول من ذاك المطعم الذائع الصيت والمعروف باسم مطعم (البرعي) كنا في غاية النشوة والسعادة بما حققناه من فوز وقد شهد لنا الشرطي نفسه بالذكاء والبراعة .. لم يكن صعباً علينا أن نختار المكان لأننا نعرفه وقد سبق وجئنا إلى هنا من قبل ، وقد كان من حسن الطالع أن نجده شاغراً كأنه ينتظرنا نحن الذين فتكنا بالآلة المجرمة .

كان مكاناً قصياً بعيداً عن زحام المطعم وضوضائه ما اخترناه لحفلتنا .. وأقبل علينا طفل يتدحرج مثل كرة الكتان مفكوكة وقد تمزق قماشها فتهلهلت فغمسوها في الزيت حتى تتماسك .. ثخين ثخين مثل خابية الزيت المركونة في دارنا في (حوش) الحفر منذ عهد (القرمانلي الكبير) برأس كبيرة مثل منطاد خرافي مبحر باتجاه المحيط .. وقف بحذاء المائدة التي خصصوها للطعام وفرشوها بقطعة من قماش أصفر ، بجانبي تماماً .. على صفحة وجهه يتراءى ملل وفي عينيه بقايا نعاس الصباح بينما كنا نحن ما بعد الظهيرة .

هتف وفي صوته خمول سقيم قائلاً في اقتضاب :

ـ " شن تطلبوا ؟ "

نحن اثنان يا سعادة الطفل الكبير أم أنك من فرط النعاس تري في هذا الكرسي الشاغر أناس ..

قلت في بالي وعيناي تمسح الجدران البالية وقد عُلقت عليها صور لمباني وأُناس قد غبروا ، ولول ما تراكم عليها من غبار التصق بزجاجها وتوغل عبر الأطر .. لقلت بأنها صور بديعة .

ولكني أفقت من تجوالي وراء الصور الباهتة ، بعد أن كرر الطفل سؤاله بعنف فأجابه محمود مبتسماً ، بعد أن لكزني في جنبي ، فضجت الدراهم في جيبه وصدحت بالرنين :

ـ " نطلب في ما نطلب طبق ،لا لا أثنين أو ثلاث أو أربع فليكونوا خمسة صحون فاصوليا بالكرشة ولا تنسي الخبز : يجب أن يكون خبز هذا النهار ، والسلاطة : يجب أن تكون كاملة الدسم طرية ومشكَلة ، والليمون لا تنسي الليمون .. "

واستلمت أنا الدفة قائلاً ، وقد عقدت ما بين حاجبي الأيسر والحاجب الأيمن الجريح :

ـ " الليمون .. أكثر من الليمون ، أكثر منه بقدر ما تستطيع ، هات كمية كبيرة . لا تنس ذلك أنه حصننا إذا ما كان حساؤكم حاد المذاق أو أن مع الفاصوليا تسبح مخلوقات أخرى لا تُظهر نفسها للناس ، وتستحي أن تصيبهم في ما تصيبهم بالوسواس .. الليمون أيها الطفل الكبير متراس عظيم بيننا وبين هؤلاء الضيوف إن كانوا

في بركة الحساء يسبحون .. "

- " لا تنسى المشروب : نريد مشروباً أيضاً أنا أحب (البتر صودا) ، وهذا الفرحان جاري متيم (بالفانتا) ، نريد ثلاثة من كل نوع هل فهمت أو أعيد .. "

- " دعني أعيد عليه بطريقتي ؛ ثلاثة (بيتر صودا) ثلاثة - واشرت إليه بأصابعي - وثلاثة

(فانتا) " ورفعتها مرة أخرى في وجهه ، فاغتاظ مني ولو لم يكن طفل لبطحني فوق طاولتهم أو ربما خاف أن تتهشم - قد نحتاج المزيد فلا تبتعد عنا مسافة تزيد عن مترين ، هيا أجلب لنا ما نريد أيها الصنديد .. أجلبه على عجل وأمضي مرتاح الضمير ...

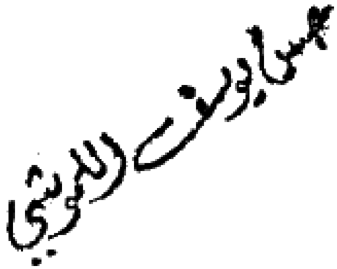

التحدي

لن يقدر عليها إلا هذا ها أنت تراه طويلاً بما يكفي كي يبرع .. كنت أعرف .. كنت متأكداً بل قل متيقناً أنه لها ، وأنه في حومة الوغى خيّالٌ ، وخيّالٌ خطير أيضاً ، ومثله من يركب الصعب ويفوز وينال مرتبه خطيرة تليق بمثله ، وقد كان هذا من أثر التدريب المستمر الذي واظب عليه في إصرار قل نظيره مثل ثور مغرور في حلبة مصارعة مسيجة مترَبة يتصارع في وسطها أدمي يتمنطق سيفاً وقماشة حمراء مثيرة لذاك الثوار الذي يقف أمامه متحفزاً لانقضاض مريع .

ولن تستطيع إلاّ الإعجاب بذاك الطويل بل والإعجاب الشديد مهما حاولت أن تستنكر ما يفعله وحده في أنانية مفرطة ، وفي تكتم مريب عنا نحن أفراد العصابة المنتهية الصلاحية منذ فترة ليست بالطويلة على أي حال ، وإن كنا نكابر وتلك ملهاتنا القصوى - عصابة هنا بمعني ؛ أصحاب ، وليس شرذمة من قطاع طرق .. هه .

كان تدريبه وحده مما يزيد من تكريمه .. دون معلم دون خبير دون رفيق اللهم إلاّ أردته الحديدية وعزمه الصارم ورغبته الجارفة في أن يكون ذا شأن وذا طول وعرض ويشار إليه بالأصابع العشرة واللسان .. لم يكن يعتمد على أحد على حد علمي إلاّ الكتب التي كانت معلمه ومرشده .. شهور طويلة وهو يعالج ما فيها بالفهم وبالحفظ والتقليد

وبالممارسة المتواصلة بلا انقطاع ، لا يمل ولا يكل ، لم يخبر أحداً منا بما كان يفعل .. ولماذا يخبر - هل كنتم من بقية أهله ؟ وبقية أهله لا يعرفون - وهو يريد من كل هذا الكتمان أن يكون الأوحد .. أن يكون البطل - الفارس المغوار الذي لا يشق له أبداً غبار سلاحه بتار وعقله جبار وقلبه معجون بنار لا ينام الليل ولا يفكر في نوم النهار - في عصبتنا السائحة عبر الرملة والجسر وأشجار البرتقال . هل هذه أيضاً من بين ما يعدد لنفسه ؟ أغلب الظن نعم هي مما يُحسب في رصيده ..وما أكثر ما في رصيد هذا الولد .. وقد أثبت ذلك بالبرهان بصورة رائعة أثبته .. وبشكل متقن أثبته .. وبأسلوب متميز أثبته .. لا يرقى الشك إليه .. في ما يخص البراعة طبعاً وهي وحدها التي ترفعه عنا درجات بلا جدال .. فعندما حانت ساعة التجربة كان في الموعد ولم يخب الرجاء فيه ، وبدأ يصول ويجول في ساحة المعركة كأنه أحد أبطال الصور المنشورة في تلك الكتب الصفراء التي استقى منها حركاته وصرخاته .

هش . ضرب ضربتين ساحقتين وإن لم تصب الهدف وتخطته ببراعة كآن صاحبها أرد منها التخويف والترهيب ، أردها أن تصيب القلب بالرعب لا أن تصيب الرأس بالرضوض والجروح والكسور ، وهذا ما حصل عليه فعلا إذ أن خصمنا العنيد تراجع عنا والخوف الذي ألقته في قلبه تلك الضربات البارعة بدأ يسرى في دمه فيصّفر ، وفي أطرافه فترّتعد ، وفي قلبه فيتصدع ، وفي رأسه فيختل ، ففضل بعد التحدي المهادنة ، وإن بيَت الخيانة بسكين بدأ هو

الآخر يرتجف في جرابه ولم يجرؤ أن يعلن عن لمعته .. كان ذلك

واضحاً في نظراته إليه !!

رأيت ذلك في عينيه الحادتين اللتين يسبح فيهما لهب شيطاني أحمر مثل لون الدم ، كان شرساً مثل مخلب الذئب ، وحاقداً مثل ناب الأفعى . فهمست لصحابي أن يحذر ولكنه كان يرى مثلما رأيت .. آه لو أصاب رفيقنا بسكينه ، كنا أكلنه .. ولكن ماذا سيكون عندها مصير الحب الذي يجمع بيني وبين [هند] فقد كانت تلك الملاك أخت هذه الآفة ، وأسفي وهول أمري وأخوها الذي يكبرها شيطان يرى في بعض ما يرى بأنه [شمشون] زمانه ...

" ولكن ما شأني أنا بكل هذا الرفس وهذه المشاحنة ؟ "

" أنت ، وهنا في هذا المقام لك الناقة ولك الجمل .. ألم تكن أحد أفرد العصابة .. كنت أحد أفردها المتعصبين .. ألم تكن مناصراً لصاحبك .. بل كنت عنصرياً وغداً مثل (موس) ! "

" من (موس) هذا الذي أخرجته من قمقم (الاحافير) ؟ "

" ألا تعرفه ؟ كان جارنا فيما مضي ، وقد أهلك البشر والزرع والضرع في بلادنا .هل عرفته؟ "

" لعنه { الله} . أأنا مثل ذاك ؟ لعنك { الله} أيضاً إذا تشبهني به . "

" .. ألم تكن تتمني الموت للآخر حتى وإن كان ذاك بعيد الاحتمال في عراك أطفال زمان . "

أعجبني بطلنا في تلك الليلة فقد كانت صرخاته المدوية تسمع من مسافات بعيدة حتى أن الشيوخ الملتحفون (بجرود) الصوف الذين

كانوا ينكبون على الدرس في المدرسة الليلية.. تركوا الفصل والمعلم وكراريس التحصيل وخرجوا عن بكرة أبيهم يتفقدون القرية فتلك الأصوات أدخلت في قلوبهم الرعب ، وكان لا بدا أن يخرجوا ليروا ويعرفوا ما يجرى ربما حسبوا أن ما سمعوه ينبئ عن كارثة أو مصيبة ما كانت في حسبان الناس في تلك القرية الهادئة . الحمد {لله} كان الأمن مستتباً ، والقرية والأولاد في غاية ما يكون الحال من الخير أمنين مطمئنين ..

« سلمت يمينك ، وشمالك اليدين والقدمين ، والبطن التي حملتك .. «

« الاثنان .. صارت أربع .. والبطن خمسة ، وإن لم تشترك في العراك لكنها فيما يخص المعنويات لها تأثير حاسم .. «

حسنا تدخلت أنا لفض الاشتباك سأقول رغماً عني ولأجل[هند] ، وعيناي وقلبي ومشاعري لديها ترى ما ترى ، وخوفي يندلع في جوفي مما قد يسفر عنه العراك إذا ما أشتد أوراه ..

- « أكان يعرف ؟ «

- « من ؟ «

- " أخوها ! "

- " يعرف ماذا ؟ "

- " يعرف أنك تلاحق أخته من مكان إلى مكان ، ومن شارع إلى شارع ، ومن زقاق إلى زقاق ، وأنك تشيَعها في كل يوم عدا يوم الجمعة الذي لا أعتقد أنك لم تضع له خطة خاصة هو الأخر كي لا يفلت يوم لا ترى فيه البنت .. نعم أنت أمكر من ذلك حتى تنسى يوم من أيام

الأسبوع لتلاحقها فيه كظلها من بيتهم إلى المدرسة ، ومن المدرسة إلى بيتهم حتى أكلت عقل البنت وصارت متيمة بك .. ومن يلومها فأنا وحدي قد عرفت صدفة أن في شارعنا وحده عشرين بنت متيمة بك ، وإن كنت متيقناً من براءتك وعفتك وشهامتك .. ولست أعرف أنا ولا أحد يعرف فيما أظن ما حيلة الناس أمام طوفان المشاعر البريئة .. فما إعجاب الناس بعضها ببعض ذكور وإناث إلاّ سر من الأسرار التي لا نعرف لها تفسيراً ، ونقف أمامها عاجزين مندهشين "

ـ " يا لك من تافه غبي ولك في الغباء باع ، ويا له من سؤال لا يصدر إلاّ عن أبله له مع البله صولات !! لو عرف لما كنت الآن هنا ... "

ـ " أين ؟ في الصين ! "

ـ " في جهنم ! لما تقاطعني على شيء تافه كهذا ..ثم ماذا تتوقع من أبي الخناجر والسكاكين وما على شاكلتها من الأسلحة البيضاء..؟ يا له من بياض وراءه الموت الزعاف الذي لا شهيق ولا زفير بعده . "

ـ " كنت أقول في نفسي : يا لك من وغد لعين إذا تحب أخت مثل ذاك الوحش . "

ـ " أنا لعين وأنت مسكين .. هكذا أنا لا يلقى بي حظي إلاّ في المهالك .. فقط لو أنك عرفته ."

ـ " من ؟ هند . "

ـ " قلت عرفته ، ما لك و[لهند] تحشر نفسك وراء سيرتها .. أنا لم أقل عرفتها ولن أقولها ، هل أصلك من هنا ؟ يبدو أنك وكما

يبدو أنك ضليع في لغة قومنا أيضاً حتى لا تفرق بين هذه وتلك ثم إيك أن تقترب من درب محفوف بمخاطر كثيرة أولها عندي واخرها عند رأسك .. "

- " أهذه غيرة ؟ "

- " هذا تحذير يا جبان .. أيك أن تقترب من الأماكن المحرمة .. "

- " أنا ! على هؤلاء .. أني أدعو لك براحة البال .. فهي وأخواتها وشارعهم والشارع الذي يليه والشارع الذي قبله ، وأختها تلك المسخ (مبروكين) عليك مع تمنياتي لك بدوام الأسلحة البيضاء والصفراء والحمراء والسوداء والتي بلا لون تقتلك برؤيتها ... "

- " لا عليك مني فقط لا تريني طلعتك البهية يا غزال .. "

- " ليته قتله وأرح الدنيا منه ، لقد امتلأت بمن هم مثله حتى أصبحوا كالجراد أطاحوا بالقيم ونشروا الرذائل وإن لم يكونوا وحدهم .. فما يشفع لهؤلاء أنهم يفعلون ما يفعلون في وضح

النهار أما أولئك الذين يستترون خلف البذل الأنيقة والسيارات [الفارهة] والمناصب الرفيعة فهم هم وكفى ! "

- " ما أروع لو قتله ، وأنا وهند نتصافى .. والأيام كفيلة بنسيان المواجع . ثم ما شأني أنا بقتله .. لم يكن لي ضلع في كل ما جري . "

- " ضلع فقط ! لكم أنت متواضع .. هذا أفضل ما يمكن أن نجده فيك .. أنت لك كل الضلوع وأختها الركب وشقيقتها المفاصل . ثم أنه لم يُقتل ! هل نسيت ؟ لم يُقتل وتلك خسارة بالغة . "

للحظة فكرت أنه مضى غير مأسوفٍ عليه ، كدت أمني النفس

بالخلاص منه ولا أقول الفرح .. فما في الموت من فرح ولو كان لعدو .. أليس هذا حق ؟ لقد سمعت ذلك من أحدهم رغم أني

أعيدها لك ولست مقتنعاً بها على أي حال .. فالعدو تتمنى فناءه وأهله وعشيرته ومدينته في كل ثانية ، وعندما يفنى تقيم عرس ، هذا ليس تطرفاً مني فهو أيضاً يتمنى لك مثل ما تتمني له . والقلوب عند بعضها شواهد . مثلما يقول الناس الذين يتحاشون الإقامة عند نواصي الشر .

عندما أنفض المهرجان العنيف ورحل كل منهما غير مودعٍ لصاحبه .. الموشوم أخو هند وعصبته ، والطويل صاحبنا وعصبته . قفزت أنا من فوق سور المدرسة إلى الشارع بعد أن سمعت هدير محرك الحافلة وهي تعبر الطريق بجوار السور ظللت أجرى ورآها رافعاً يدي مشير إلى السائق عله يراني من خلال المرآة الجانبية ، وقد كنت أصرخ وألعن بلا سبب لعلي كنت أحفز قدماي على الركض . رأى اليد ولم يسمع الصوت فتوقف ولو سمع الصوت أتراه سيتوقف . بالتأكيد هذا شيء مألوف لكنه في هذه الحالة سيتوقف في وسط الطريق لا على جانبها .. هذه الأولى ، لينزل إليّ لا لأصعد إليها ، هذه الثانية ، ليحاول ضربي وقتلي أن أستطاع ، وهذه الثالثة .. هذا ما سيحدث في حالة ما لو سمع الشتائم . ذلك لأن لنا في ذلك طبع سائد غريب مثل طبع الغاب تماماً .. لكنه رثى لحالي لما رأي اليد ، ولم يسمع الشتائم فتوقف لي وقفزت إليها لأجد محصل التذاكر المزيف في انتظاري وهو يبتسم فحييته تحية رطبة ثم جلست عند أول كرسي أمامه وأنا أقول في ذات نفسي مرة ، وله مرة .. وإن بدأت به :

- " هذه أول مرة أجد الحافلة فارغة . "

- " لأنها ليست حافلة ركاب عادية مثل ما كنت تعتقد يا ظريف . "

- " أهي حافلة حمير! " قلت في نفسي .. متجرعاً كأساً من القلق اللعين بدأ يتسرب إلى أحشائي .

- " ما بالك قد خفت .. لا عليك . ليس هناك شيء يمكن أن تخشى منه .. هذه بقعة عامرة بالسكينة لها خصوصية قصوى .. أنها حافلة مجانين .. "

[وقعت في شر أعمالك ألم تكن أنت سبب تلك المشاكل كلها .] قالت لي نفسي شامتة ساخطة .

[أنا يا غبية .. أيكون هذا منك وأنت حصني ، على من اعتمادي إذن .. صدق من قال " النفس أمارة بالسوء " .] بهذا رددتُ نفسي على نفسها اتهاماتها الباطلة .. جدال مستميت أحتدم فيما بينهما وظللت أنا أتفرج ضاحكاً في خمود أتلصص على الاختين الشقيقتين .

- " لا تخف سوف نوصلك حيث تريد وحسب ..لا تخشى ما تخشاه فالمجانين بشر أيضاً .. أليسوا بشر أم أن لك رأي آخر ... "

تنحنح أحدهم فلتفت رأسي ، وبحلقت عيناي ، فإذا بعشرات العيون تبحلق في أيضاً .. عيون تبرق في ظلام الحافلة تكاد أن تكون حمراء ! مثل عيون القطط البرية المتوحشة .. أتراها تتحفز للانقضاض .. يا لها من حافلة بل يا له قدر .. وقد صرت في نهاية المطاف كله مثل فريسة بريئة ومسكينة وقعت في مصيدة لا نجاة وراءها .

[لقد وصلت حيث تريد .. وصلت تماماً .] هكذا قالت لي نفسي مثلما تكون شامتة وهي تسح العبرات مخنوقة بالرعب والسخرية .

ـ " هل لك أن تخبره بالتوقف .. معروفكم على رأسي . أما أنا فقد وصلت حيث أريد .. "

ـ " هل تستطيع أن تقفز ؟ "

ـ " أقفز ! هل تحسبني ضفدع ؟ "

ـ " ألم تكن نشيطا تنط منذ قليل مثل قرد ملعون .. ما الذي غيرك ؟ "

ـ " لا بأس أفتح لي الباب . "

ـ " ألاّ تستطيع من النافذة ؟ "

ـ " أخاف أن أكسر زجاجها فأصبح أحد رواد حافلتكم العامرة .. "

ـ " حسنا . " واستطرد موجهاً كلامه للسائق .

ـ " يا سعد أفتح لهذا الضفدع الأصفر المغامر .. "

تفضل السائق بفتح الباب ، ولم يتفضل بتخفيف السرعة وظلت الحافلة تطير في طريق ضيق ، من حسن الحظ أنها كان شبه فارغة وإلاّ لدهس المارة والعربات الصغيرة المتهالكة في طريقه وسواها بالإسفلت القديم .

ـ " هيا أقفز . " قالها جاداً دون أن يبدو في وجه غير التصميم .. التصميم الشرس .

ـ " وهي بهذه السرعة .. هل تراني (خفاشاً) حتى تطلب مني

الطيران وفي مثل هذه الساعة من الليل ؟ لو طلبت مني ذلك نهاراً لأختلف الأمر .. في النهار أستطيع أن أبتكر حيلة ما .. لما لا

تخبره أن يخفف من سرعته .. فقط يخفف منها .. أنا لا أطمع في أكثر من ذلك . "

- " لا تحلم بهذا . إذا أردت أن تنزل فدونك الباب ... " لم يكاد يكمل جملته حتى قفز كلب أمام الحافلة .. كلب كأنه كلب أو كأنه حمار (مكلوب) وقد تجرأ وخرج ليلاً ، ذلك أن الكلب لا يخيف بأي حال صاحب الحافلة .. يا له من كلب أو يا له من حمار ذلك الذي أنقذني .. كأنه جاء لإنقاذي .. ما أضطر السائق العنيف إلى تخفيف سرعته إلى الحد الأدنى حتى لا تنقلب حافلته على جنبها أو على رأسها أو على مؤخرتها فكانت فرصتي ، فطرت في قفزة باهرة أدهشته .. كان هذا السائق مميزاً بكل المقاييس إذا لم يدهس الكلب .. لم يكن هكذا لكنه الحظ والمفاجأة والبراعة ، كانت قفزت أذهلتني في من اذهلت - رفع يده محياً بينما جلست أنا تحت شجرة المحطة التقط انفاسي بصعوبة بالغة - تلك شجرة لها تاريخ لدي شركات الركوبة والبشر سكان القرى في طرابلس المعمورة والبيئة والبلدية والكهرباء ومحطة ضح المياه .. محطة الشجرة - يا له من تاريخ .. التي كانت تبعد عن بيتنا بمسافة لا بأس بها كان عليّ أن أقطعها متوغلاً عبر شوارع القرية المتربة بجسم مرضوض من أثر السقطة التي تجرعتها من جرأتي على الطيران ، وأنا أجر خلفي قدمي المصابة وليل يقتفى أثري أيضاً ..

بدأت بالشارع الذي يقود إلى مدرستي القديمة (الشرقية الابتدائي) وصرت أقتفي الآثار الغابرة لأقدامي الصغيرة المشاغبة حتى وصلت سور المدرسة حيث تمتلئ هذه النواحي بذكرياتي القاتلة المشحونة بالشجن أمام سورها وخلفه ، وبين أروقتها ، وجنابتها ، في حجراتها ، وفوق أرصفتها ، كلها .. أجل كلها تعبق بأريج الذكرى ولفحات حنينها ما زلت أهفو لعبير جدرانها الرطبة .

عندما توقفت أمام باب بيتنا المطلي باللون السماوي أخيراً كنت في أخر الرمق من التعب فرميت بنفسي كما لو كنت خرقة بالية فقدت طراوتها ودعكتها صروف المحن ، على الرصيف العالي لبيتنا القديم المطلي باللون السماوي كما كنت قد أخبرتك حتى لا تنسى لونه المميز ..

- " مميز ! هه . في شارعنا عشر بيوت بما فيها بيت أبي ذات لون سماوي يشبه بنطلون مدرس التاريخ . "

- " يا لك من كافر ، الم تذكر من مدرس التاريخ إلا بنطلونه !؟ ألا تذكر يوم ضربي بعصي الزيتون الرقيقة التي كانت تلسع كأنما يسرى عبر خشبها تيار كهربائي مريع ... "

- " كيف لا أذكر .. كانت أربعين لسعة . أنقضت نصف الحصة ولم يكمل العد .. تستأهل ! ما الذي أتي بك ذاك اليوم ولك بطن ممزق .. ؟ "

استعدت بعضاً من نشاطي فدخلت البيت بعد أن فتحت لي أمي .. ليلتها قذفني أبي بصاروخ أرض أرض نوع (راديو) فأصابني في

كتفي وتخطى وجهي ، وكان هذا من حسن حظي فلو

أصابني فيه لكنت أعور الآن أو في الوجه ندوب وحفر أو ربما كنت في القبر لو كان أصابني في صميم الرأس عند عرق الحياة ... " لكن عرق الحياة في القلب . " قالت نفسي لنفسها مشاكسة وقد هاله منظر الدم .. " لم يكن هناك دم " ردت وقد نفذ صبرها وتأججت حالتها ..

حقاً ! لم أكن أدري ! من سنين وأنا أحسبه في الرأس منذ سنين طويلة .. شكراً لك يا حكيم زمانك إذا أفدتني .. أحقاً هو في القلب !؟ وكنت أحسب نفسي فقيهاً أعني عارفاً . لا تحسب عليّ أغلاطي اللغوية فهي أكثر من أن تحصى .

" إن كان عرق الحياة في القلب .. إذن حبة الحياة التي نسمع عنها أين تراها تكون ؟ "

" ليس هناك شيء أسمه حبة الحياة .. لقد اختلطت عليك الحبات .. كانت الناس تسميها حبة القلب لا حبة الحياة . "

آه أرأيت ها أنا أؤكد لك مرة أخرى جهلي المطبق الذي كان يحاصرني في أحيان كثيرة مثل كماشة من الحديد الصدئ .. فهل تصفح عني يا حكيم .. للمرة المائة ... ولم تقف أخطائي عند حد فأنا كما قالوا عني فتى مدلل لم تطحنه تجارب الحياة بعد ، ولم يدعكه الزمن كما ينبغي ، لهذا فها أنت تراني مثل جدى ملعون لا يفتأ يطيح بالأشياء في رعونة دون أن يعي ما وراء الغفلة التي هو فيها .. الغفلة مازالت تكبلني من أخمص القدم حتى الشعرة الأخيرة من

رأسي الكبير .. لم تكن صغيرة كما كانت قد أشرت بنت الابالسة .

كانت ضربة ساحقة مثل تلك الضربتين من بطل فقد حدسه فطاشت في الهواء ، لكن هذه أصابت وتلك خابت .. أنخلع كتفي على أثرها ، وظل الوجع أسابيع أما الأثر فسنين ثم أنمحي ،وظلت الذكرى تراودني فأمسك بكتفي الأيسر .. لم أسقط أنما الدهشة عصرت دموعي ، ولم أصرخ فقد عقدت لساني ، ولم أتوجع فقد أنستني شكل الوجع ، وإن صرخت أمي وبكت وتوجعت بدل مني ، كنت أنظر إليها ، وأنظر إلى (الراديو) الذي كاد يهشم وجهي يقبع تافهاً تحت قدمي ، وأنظر إلى أمي التي كانت تتوجع أكثر مما أتوجع .. وأنظر إلى الباب الذي جعلته خياري الأول ..كأنما انبثقت فكرة الهروب لأول مرة وظلت تراودني وتلح لكني لم أفلح أن أفلت البتة ، وظللت رهين المحبسين مثل (أبو العلاء المعري) .

لم أطأطئ الرأس ابتسمتُ لأمي ، وأنا أخطو خطواتي الأولى نحو الباب لكنها طلعت بي الدرج بدل أن تسوقني إلى الشارع بعد أن سدت أمي عليّ باب البيت وهي تدفعني إلى الداخل .. رجلاي لا يكادان يحملني جسدي وألمي ورضوض كتفي كنت أستريح فأجلس ثم أقف و استأنف الصعود عتبة عتبتين ثلاث عتبات ، وأجلس كي أستريح توالى الجلوس والصعود حتى وصلت باب غرفة الغسيل فجلست طويلاً عند العتبة الأخيرة . وهي غرفة تصل بين الدرج وبين سطح البيت أعتاد الناس على تسميتها بغرفة الغسيل ، وهي تسمية كانت في الأغلب من اختراع أحد المهندسين أيام زمان حيث ستجد تسميتها في أغلب خرائط البيوت القديمة .

متحسراً مفكراً وأنا أشعر بمرارة ممسكاً بكتفي مرة وبرأسي أخرى .. كان يتلاعب بي الشيطان الرجيم .. فيسول لي الهرب مرة ، والهرب مرة أخرى .. والهرب إلى الأبد ولم يتركني حتى رضخت لواقعي .. ولما تعِبت العتبة مني ساقتني بنفسها أو هي قذفتني إلى الداخل حيث تلك التي يدعونها غرفة الغسيل - هكذا كانت تسمى في عرف المهندسين زمان .. وهكذا كانت توصف في الخرائط - أما قلت هذا من قبل !

[لا بأس ، ألا تعذرني وكتفي مخلوع ورجلي ملتوية مع رضوض جسمي وانكسار خواطري أعني قلبي من هول نهاري الذي أنتهي بقذيفة ...]

كانت غرفة واسعة لها بابان أحدهما يفتح على الدرج والآخر يفتح على سطح البيت ، ولما كان فوق السطح بيت آخر فقد كانت تفتح على صالة كبيرة يفتح فيها غرفتان أحدهما كبيرة مستطيلة الشكل والأخرى صغيرة مربعة ومطبخ وحمام ، وتفتح هي بدورها على فناء البيت الجديد ، وهذا هو ما نسميه عندنا (جنان) .. يطل على بيتنا الأصفر القديم الذي تركناه منذ زمن طويل ؛ ذلك الذي حضرنا فيه أحداث جسام على مستوى الشأن العربي المعاصر ...

وصلت مربطي .. كيف أحكي لكم عنها حجرتي الصغيرة ؟ أنها صغيرة مطلية بالوردي .. باللون الوردي تطل على شارعين أحدهما فرعي والأخر يدّعي أنه رئيسي عبر نافذتين صغيرتين في أحد أركانها يقع سريري ، وكان هو في تلك اللحظة أهم ما في الحجرة ،

وأهم ما في البيت ..وقد يكون أهم ما في الدنيا في مثل حالتي تلك من التعب والغضب وشعور القهر المهين .. ورغم أني لم أرمي بنفسي إليه كما كنت أتوقع ، وهو لم يفتح ذراعيه الكبيرتين لاستقبالي كما كنت أتصور .. فأني كنت أتمني أن أفعل ذلك لكن شيئاً غريباً جعلني أحجم عن أن يحتويني مثل هذا السرير المغرور كأني طفل مازال يمص أصابع الدلال .. توقفت في وسط الغرفة برهة طويلة مفكراً أنظر للمكتبة الصغيرة تارةً ، ولصورة كبيرة كنت أعلقها على الجدار المقابل لأحد النافذتين تارة أخرى ، واسعة الآفاق تتباهي بالروعة ، لم أهمل خزانة ملابسي ذات اللون الأحمر الفاتح ، وهي من ذات لون السرير والكرسي واللوحة المعلقة على الحائط التي تحاكي في لونها الداخلي لون الغرفة ، وإن كان في اللوحة ألوان شتى أخرى تتراوح بين البنفسجي والأخضر الزيتي والغامق والأزرق والأحمر الفاقع وألوان ثانوية أخرى مزيج من الألوان المبهرة .. والطاولة الصغيرة التي تحاذي السرير .. ألقيت بنفسي فوق كرسيي الفاخر ذي المسند الإسفنجي والذراعين الخشبيتين المزركشتين الأنيقتين الذي يجاور سريري ، ويواجه خزانتي ، ويعطي بظهره للجدار ذي النافذة المفتوحة التي تطل على الشارع الفرعي المسكون بخمول عجيب يتسع حتى تقول هذا شارع ميت لا يسكنه أحد ثم ينتفض فجأة حتى يصير كأنه ساحة حرب .

لم يطل بي المقام في حجرتي الصغيرة ذات النافذتين والمنظر الطبيعي الخلاب الذي يشغل حيزاً عظيماً من الجدار الذي يواجه النافذة الشرقية حتى أقبلت أمي تحمل لي ثلاثة صحون لازلت

أذكرها في الصحن الأول حساء البازلاء ، وفي الصحن الآخر بيض مقلي أما الصحن

الثالث ففيه ما فيه ثلاثة أصناف من غلة البرتقال (دمَية وكينية وبو صرة) فأمي تعرف بحكم العادة أني لا أشتهي من الفواكه شيء مثله أبداً .. هذه أحد الألغاز أما الثانية فإن أمي تعرف

بحكم السمع أن البرتقال هو أحد شعارات جمعتنا المتهالكة تحت حضيض الوادي ، وهي تعرف بحكم الملاحظة أيضاً أن لا شيء يخفف من حدّة غضبي مثل حفنة من ثمار البرتقال الدمي أنفث فيه غضبي وأتذكر استراحاتي فوق جسر الوادي ومباراة في كرة القدم كنت فيها نجم الفريق ..

تحدثت أمي طويلاً قالت كلاماً كثيراً لم أعد أذكره ما أستطيع أن الخصه منه هو ما كانت ترمي إليه من تطييب لخاطري ، وتهدئة لغضبي ، وحملي على الرضاء والقبول بما كان وما سوف يكون في مقبل الأيام يرافق كلامها دموع ، ويرافق بعض كلامها تهديد بالمقاطعة والغضب عليّ بل وصل الأمر إلى حد حجب الرضا عني إذا ما فكرت مجرد التفكير في الهروب من بيت أبي .. خرجت أمي وهي تدعو لي : بالنجاح الدائم ، والعمر الطويل ، والمال الوفير ، والعقب الصالح " كل هذه الأشياء مع بعضها البعض .. ألا يبدو لك هذا شيء معجز !؟ "

مع العلم أني لم أتزوج بعد ، والحياة الحافلة بالملذات والمسرات والمباهج والمغانم والغلبة على أولاد الحرام وأولاد الحلال وأولاد

الجيران وأولاد المدرسة المجاورة لمدرستنا القديمة الذين كانوا يسرقون كتبنا وفطور الصباح والكرة التي نلعب بها في حصة الرياضة . لم تدري أمي المسكينة أني قد ارتقيت وانتقلت من تلك المدرسة من زمن طويل ، وأني الآن في الصف الثاني أعددي وليس ثاني ابتدائي . لم تكد تذهب أمي حتى أقبلت أختي بإبريق القهوة وضعته أمامي وخرجت دون أن تتفوه بكلمة .. خوفاً مني و احتراماً لمشاعري و حزناً على ما حدث لي ...

أشعلت سيجارتي وسكبت قهوتي وقشّرت البرتقال ، وصرت أحتسي القهوة ، وأكل من البرتقالة ، وأمص الدخان .. هكذا حتى أقبل عليَ نهار آخر يمتطي ظهر الشعاع فتركته يفترش أرض الغرفة ويتسلق الجدار ، ونمت وأنا أحلم بالفيضان والوادي والكرة التي تسلقت أيضاً أعلى التل الغربي وتبخرت ...

الميدان

- « عليك أن ترسم بالجير دائرة نصف الملعب ، والصندوقين أمام كل مرمى ... »

- « هه . »

- « ما بك ؟ »

- « كأني لا أعرف ! »

- « لا تنسى علامة الجزاء حلقة صغيرة في كل صندوق ، لا تنسى العد أيضاً . هي تسعة أمتار أليس كذلك ؟

- « هل تسألني أنا ؟ »

- « فقط كي اتأكد ! أرجو أن لا تلعب بالجير كعادتك وترسم وجوهك السخيفة الضاحكة والباكية والمشمئزة والغاضبة وما شاء لها أن تكون . لا نريد الميدان ملوثاً بالجير ثم أن ما لدينا من الجير أقل من أن يكفي رسوماتك المذهلة . لقد أمتص سور الجسر وسقفه ما كنا له أحوج من تلك اللطخات التي شوهته بها .. ما زلت لم أصل إلى جواب حول كيفية وصولك إلى ذلك العلو البعيد .. كيف استطعت حقاً عمل هذا الشيء المجنون والارتقاء إلى هناك ؟

أخبر (محمد الهادي) عندما يأتي أن يضع الجير فوق الخط المرسوم حول الملعب قل له أن لا يعطيك من نصيبه من تلك المادة

اللعينة فهي قليلة لا تكفي لتخطيط كل الملعب أو بالكاد تكفينا ، يجب أن لا تتحايل عليه فأنا أعرفه يحبك ، وسوف يعطيك من نصيبه على كل حال .

حصتك من الجير هناك عند السياج الإسمنتي .. هي تكفيك ، وقد يتبقى لك منها القليل للرسم .. لقد حرصت على ذلك .. فلا تعتدى على نصيب غيرك .. حصة جوانب الملعب بجانب المرمى فلا تقترب منها .. أرجو أن لا تقترب منها ... »

- « كأني سآكلها ! »

- « تأكل الجير ! يا ليت كنت سمنت ، وطالت قامتك قليلاً ، وأبيّض لونك ، وربما تهذبت تصرفاتك الرعناء ... »

- « يبيّض لوني ! يا له من تعبير فج ، هل أبدو لك أسوداً مثل أبن زبيبة مثلاً ؟ هل تريد أبيض من هذه البشرة التي أحملها فوق رقعة وجهي ؟ »

- « ما أعنيه يقع في الجهة اليسرى من صدرك . »

- " آه . أنت تعني قلبي .. قد يكون شعري أسود . قد يكون لون عيناي رغم أن بعضهم قال لي مرة أنها عسلية كما أن هذا هو بالضبط ما كتبوه في بطاقتي .. لكني قلبي ربما لا يكون أبيضاً تمام البياض لكنه ليس أسوداً أيضاً . لا تكن مجحفاً ظالماً مثلما مغولي مدمر . "

- " أنت تغص بنا في متاهات كافرة ! ما هو مهم عندي الآن هو الذهاب إلى عمار لأرى : هل أشترى الحبال ... ؟ "

- " إذا أردت أن تعرف رأيي فالمسامير أفضل بكثير من حبالك التي تود شراها ! "

- " رأيك ممتاز وسوف نستعمل الاثنان . عليك فقط أن تقوم بما أخبرتك به ، ولا تهدر المزيد من الجير ... "

- " أتريد الحق أنا لست موفقاً على الانتقال من ملعب الوادي ... "

- " عدنا إلى كلامك الفارغ . حسناً لا تشغل بالي الآن بهذا الموضوع . سوف نناقش هذه المسالة في وقت آخر . "

لم يكاد يخطو بضع خطوات حتى قفل راجعاً وهو يقول مشيراً إلى دراجتي السوداء :

- " خطر لي أن أستعمل هذه . ما رأيك ! هي أسرع وأحسن وأمتع .. "

قلت وأحد عيناي تنظر إلى الدراجة الملقاة بإهمال وراء المرمى ، وعين أخرى على الكيس الذي يتوسد العارضة الخشبية للمرمى . أمتطى الدراجة وأنطلق قبل أن يسمع رائي الذي تغير في لحظتها من رأى إلى نصيحة ؛ لكنك لا تعرف كيف تقودها ... كنت سأقول أيضاً ؛ في هذا الجو المغبر حتى لا يغضب إذا كيف سيقبل منى ذلك . لم تصل إليه النصيحة سرقتها الريح قبل أن تصل أُذنيه ..

والنتيجة كانت واضحة تجسدت مثلما كنت أفكر فقد كادت أن تصدمه سيارة في الطريق الرئيس ، وبعد أمتار قليلة سقطت به في الرمال المحاذية لمدرستنا الطليعة ، لم يحدث له شيء ذا بال سوى بعض الكدمات هنا وهناك : الرأس أخذ نصيبه بواحدة ، والجبهة بثانية ، والذراع بثالثة ، والساق برابعة ، هذا فقط ما تسنى لي

الاطلاع عليه ويبدو أن هناك إصابات أخرى مخفية لا يمكن لنا معرفتها لأسباب كثيرة معروفة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً .

ولكن كل ما جرى لم يقعده عن امتطاء الدراجة مرة أخرى .. لم أره يسقط بعدها إلى أن غيبه عني انعطاف الطريق ، وإن كان تخميني يسير في الاتجاه ذاته من أنه سوف يسقط مرة ثانية وثالثة قبل أن يصل إلى بيت عمار الذي يقع خلف المدرسة بشارع وإن كنت أخمن أيضاً أنه

سوف ينزل عنها حتى لا تسقطه أمام الناس ، وهي فضيحة كبيرة وما ركوبه قبل انعطاف الطريق إلا لأنه يعرف أني أرقبه بموهو لا يريد أن يظهر عجزه أمامي في قيادة مجرد دراجة .. ما كاد يغيبه عني سور مدرسة (الطليعة) العامرة حتى جريت إلى حصة (محمد الهادي) من الجير وأخذت حفنتين كبيرتين ثم أخذت حفنتين أخريين من حصتي وخلطهما معاً حتى أستطيع الإفلات إذا ما تعرضت للاتهام بالسطو على حصة غيري أستطيع حينها أن أقسم دون أن أحنث . بدأت برسم دائرة نصف الملعب بهذا الخليط لتبقى حصتي للرسم .. كانت فكرة أتوقع لها النجاح . لولا أنها جاءت على حساب (محمد الهادي) .

ما كدت أخلط الجير الذي اختلسته حتى وقف فجأة فوق رأسي رفعت عيناي إليه مرتبكاً ، وقد ظننت أنه قبض عليّ بالجرم هذه المرة .. فإذ بي أره مشعث الشعر مغبر الثياب مما يدل بالقطع أن دراجتي فعلت به في الإياب كما فعلت به في الذهاب ! يا لها من دراجة كأنها

كرهت ركوبه فوقها ـ يبدو ذلك واضحا آه ـ فتخلص منها قبل أن تمرغ كرامته فوق أسفلت الشارع بعد أن أطاحت به فوق الرمال فقلت في محاولة مني لإخفاء ارتباكي :

ـ « أرى أنك لم تتأخر .. كما يبدو لي أنك قد وفقت في الرحلة .. »

ـ « خذ هذه هي الحبال ، سوف يأتي عمار ليربط الخشب . »

ـ « لا تقل لي أربط هذه العوارض اللعينة فأنا لا أتقن هذا النوع من الربط من يوم ولدتني أمي حتى هذه الساعة من عمرى المشدود بحبل .»

ـ « قلت لك عمار هو من سيفعل ذلك ، فلا تخف فأنا أعرف أنك لست كفؤ لذلك . »

ـ « أين طائرتي النفاثة ؟! »

ـ « خردتك تلك تعطلت بي في الطريق ، كادت أن تلقى بي من فوقها ولولا براعتي لما كنت الآن هنا .. »

ـ « اللوم يقع عليّ أنا في المرة القادمة سوف انتبه . ما كان يجب أن أتركك تركبها وهي بهذه الحالة ، وقد رأيت كل شيء من مكاني هذا .. »

ـ « رأيت ! ماذا رأيت ؟ »

ـ « لم أرى شيئاً ذا بال . لا تزعج نفسك .. وكيف لي أن أرى كل ما حدث من مكاني البعيد هذا ، وما أره عليك لا ينبئ أبداً بأنها كانت سقطة قوية أسفرت عن أيما ضرر حتى أنك لم تصاب باي خدش واضح يمكن أن تراه العين المجردة ... »

أحمرت عيناه وتهدج صوته وهو يصرخ في قائلاً :

- « أي خدش ! ليس بي شيء مما تقول . هل لك أن تكف عن هذا ؟ ما بي شيء .. دعنا من حديثك السمج الذي يعكر الدم . »

- « معك حق وأنه لحديث سمج مر يعكر الدم ، لكنك لم تقلي أين طائرتي ؟ »

- " لقد أرسلت (عمار) عليها لشراء المسامير . "

فغمزت بعيني وأنا أقول :

- " أرجو أن لا تسقطه هو الأخرى ! رغم أن عمار بارع في الاثنين ؛ لعب الكرة والقيادة . "

رأيت الامتعاض في عينيه فقلت كي أخفف من امتعاضه وغضبه :

- " لمثل هذه المهام جئت بها إلى هنا ... "

عدت إلى جيري ، وإلى حلقة نصف الملعب ألون حوافها بالبياض ..(والعوّد أحمدٌ) هذا هو ما كنت أقوم به قبل أن يأتي (عمران) معفراً بالرمل وأثار كدمات على وجهه . يال هذه الدراجة اللعينة ما فعلت به . كأنها كانت تنتظر سانحة مثل هذه لتنتقم منه لأجلي ولأجل الوادي الذي يحاول أزاحته عن دوائر اهتمامنا ؟ عن مكانته بيننا .. عن صحبته لنا .. عن الرفقة والمودة والعشرة المتأصلة في ما بيننا وبينه من أمد بعيد . كأن ذلك كان من بداية الدنيا !

كنت منشرح الصدر مزهواً بنفسي لأول مرة منذ أن بداءنا العمل في هذا الميدان الذي ما أحببته أبداً من بداية أقترحه كبديل إلى نهايته التعيسة بعد أن أصبح مكباً للنفايات ؛ - هذا ما صار إليه بعد

أن حاول أن يزيحك أيها الوادي العزيز . وقد حسبوك ميدان كرة وحسب. وقد أنجزت في دقائق ما كان انجازه يحتاج مني إلى أضعاف أضعاف هذا الوقت . حتى كان يوشك أن يكون عملاً ممتازاً لولا أني أنجزته عن كره مني ، ولكن بتحدي يلبس ثوباً أخرق من السخط والغضب الأحمق .. أنجزت مهمتي على أكمل وجه حسبما أرى ، وقد أعجب الإدارة الفنية المزيفة . بل أني حتى لم يصدر عني أيما شيء من التذمر تجاه ما كنت أفعل رغم كرهي له ، وبالرغم من أني كنت أنظر إلى هذه الدائرة التي رسمتها ، ووضعت فيها شيئاً غير قليل من براعتي في الرسم ، بعين غلب حقدها على شعوري بالامتنان لما فعلت ، ورأس بليد يخطط منذ البدء لخرابها بعد ساعات من أنجازها ، بل أني لن أصبر عليها حتى قدوم الليل تسبقه جحافله السود فتطمس على الدنيا وتخنق الكائنات . أن ما بي من كره تجاه ما يفعلون حداً لا أستطيع معه لا الصبر ، ولا الفهم مما يجعلني أقوم بأفعال ليست أبداً من طبيعتي ولا هي من أسلوبي . وأرني أحُمل على فعلها دون أرادة مني دون وعي ربما كان عقلي الباطن هو من يحركني لأفعل هذا الشر إن صحت تسميته ونعته بالشر ، ولكن هل يستطيع هذا العقل المتخفي خلف أستار بعيدة مظلمة مبهمة أن يفعل كل هذا ؟ ويقوم بشدي دون رغبة مني وراء مشيئته كأني دمية لا حول لها دون أن يكون لي أي دور إلا أن أستقبل التقريع واللوم ، في هذا الحين وعندما أكون في أشد الحاجة إلى من يعضد مواقفي وأرائي ويبعث فيّ القوة لمواجهة هذا السيل العرم من النقد واللوم والتقريع أجده قد اختفى وتوارى خلف حُجب لا أعرف أنا كيف أنفذ إليه من خلالها

، والاتهام الذي ربما وصل حداً قد لا أستطيع أنا نفسي أن أتخيله كنتيجة لهذه الأفعال المشينة .. حينما جلس هو يتفحص خدوشه وكدماته ، كنت أكسر عيناي بين الفينة والفينة لأرى ما يصنع .. ألقى بجسمه تحت عارضة المرمى وكان يبدو عليه الغضب ، وعندما كان يضبطني متلبساً بمراقبته كان يحدق ڧِّ من بعيد وعلامات استنكار واضحة ڧ حركاته العصبية فينشغل بفحص خشب المرمي وهو ينظر إليّ بدوره من زوايا عينيه مستنكراً .. لا يبدو عليه الغضب كثيراً وإن بدء عليه الألم ،لا بأس تلك بعض من ضرائب الميادين الكبيرة التي تود أن تكون لنا .

عمران شاب طيب ڧ طبعه حنان ورقة ، وسماحة تغريك بصحبته ، ابتسامته العريضة الدافئة لا تفارق شفتيه حتى وهو ڧ حالك من الظروف القاسية والتي تجعل المرء كأنه كتلة من لهب تفور على غير طائل ، غائباً عن نفسه عن من حوله هائماً على وجهه مثل قطة جائعة يلهو بها فار مقاتل أضاع صوابها وجعل منها أضحوكة بين القطط والفئران على السوء ..

لما نهضت نافضاً عني غبار الجير الذي تعلق بملابسي وشعري وكفي حانت مني التفت ناحية القرية الملتحفة بالكآبة فإذا بصديقي المغرد ڧ الجهة الأخرى من الطريق يحاول العبور وخفافيش الطرقات التي كانت تسبح فوق ظهر الإسفلت المراوغ ڧ رعونة سافلة لا تنبي عن شيء مثلما تنبي عن جهل أصيل مطبق عليها من جهاتها الأربع ، وهي تمنعه الوصول إلينا ، وراءه تماماً يقبع ذلك المبني الرمادي المدفون ڧ تعاسة صارمة ، كان ڧ صمته وكآبته ما يشبه

مقبرة قديمة نائية منعزلة لا يقترب منها أحد ، وزيادة في تعاسته فقد سموه السوق الجديد ؛ جديد ! ـ كأنها كانت لعنة هذه التسمية المشؤمة ـ ، فقد كتب عليه الحرمان الأبدي من أي غد قادم فهو مقبور في ماضي قائم لا تزحزحه أفانين ولا براعة منذ إنشاءه .. وراء السوق الحزين كمن يندب حظه بدكاكينه الخاوية على عروشها ، وحوله في الاتجاهات الثلاث خلف الطريق ذي المسار الأوحد اليتيم تمتد القرية بغبارها ومنازلها وشغب أطفالها وعراك نساءها ،ولهث رجالها خلف لقمة العيش .. من خلفها طريق يفصلها عن المزارع ومن أمامها طريق يفصلها عن المزارع أيضاً ومن جهتها الجنوبية ثكنة تفصلها عن مناطق الغابات أما جهتها الشمالية فتمتد في شوارعها العارية وبيوتها المتهالكة حتى مزرعة (بن دخيل) التي لا تقف عندها (الهضبة) التي كانت خضراء ، ولم تعد .. مازال لها امتداد إسمنتي خلف هذه المزرعة والتي انتهت هي الأخرى الآن وصارت بيوت عامرة وبعض المرافق الأخرى كالمدارس ؛ ثم أستل منها الطريق السريع مساحة لا باس بها بعد أن شقها بالعرض والطول من أقصاها إلى أقصاها .. خلف المزرعة التي بقر بطنها الطريق المميت تقع قرية أخرى مستطيلة الشكل تعد من بين أفضل مناطق الهضبة تنظيماً يسمونها (قرية البطاطا) كبيرة عامرة بالبيوت المتراصة والمتلاصقة والمتكئة بعضها على بعض في تألف حميم .. حتى القلوب كانت عامرة هي الأخرى . بالانتماء للمكان . للناس . للذكريات الباسمة التي تظل تطرق القلب وتملؤه بالحنين.

أما هذه الشوارع الكثيرة التي تتقاطع وتتوازى فهي خانعة

مستسلمة لقدر صارم . طرقاتها المتربة بيوتها الخاشعة المتشبثة بالأرض في خضوع مهيب للماضي والقديم والتقليدي ..

- " أين صاحبك ؟ "

- " من منهم ؟ فهم كثر حسبما أعتقد ! "

- " من غيره . ذاك البلبل النشوان ! "

- " أتعني ... بلبل ! هه . أحلي بلبل في البر كله ! "

لم يضحكني النعت الجميل وإن أدهشني أن يصدر من (عمران) بالذات كما أنه أعجبني . فلو كان لنا بلبل ونستحقه فلن يكون غيره . لن تجده في مكان كئيب ، ولن يعرف الكآبة مكان يكون فيه . رفعت رأسي وأنا أتمتم بهذه الكلمة فإذا (بمحمد الهادي) يتراءى مقترباً منا بعد أن عبر الطريق الأسفلتي الذي يفصل ما بين الميدان والقرية الملتحفة بسكينتها الكابية ، فقلت في ذات الخاطر نفسه الذي أعجبته تلك الصفة التي أتحفنا بها (عمران) مبتسماً لها وله بذات الإعجاب:

- " ذاك صاحبي ، ولن يخذلني أبداً . "

- " لا أريد شغباً آه ! "

- " شغب ! ومن يفكر في الشغب ؟! "

- " أنت ! أم تحسبني نائماً على بطني . لقد رأيتك منذ ليلتين تكوم الحجارة في منتصف الملعب ثم تقذف بها في اتجاهات مختلفة منه ، شتتها في أنحاء الملعب بالكامل . يا لك من عفريت .. أنت (عسكر سوسة) قبل اليوم وبعد الغد . "

- " أنا ! وفعلت كل ذلك ! "

- " أنت لا أحد غيرك . لم أتصور أن يصل بك السخط حداً يجعلك تخرب مجهود أصحابك على مدار أسبوعين كاملين . "

- " لكني لم أفعل ذلك مطلقاً . "

- " إنكارك لا يعني لي شيئاً . لكني ورغم هذا لم أتكلم ، كما لم يخطر ببال أحد منهم أن تكون أنت من فعل هذا الجرم بهم ، والاتهام طبعاً ذهب في اتجاه أولاد الحي .. "

- " من يعرف هذا لا يفضح أمري أبداً . "

- " لم يفضح أمرك أحد .. لقد رأيتك بنفسي بالصدفة ليلة أول أمس . "

نظرت إليه ولم أطأطئ رأسي ذلك لأني كنت فخوراً بما فعلت حتى يعرف الجميع مدى كرهي لما يفعلون فعدت أقول :

- " أتريد الحق ! "

- " لا . لا أريده . أعرفه كما أني أعرفك ، وأعرف ما تفكر فيه ، وتخطط له في هذه اللحظة ، وكيف يحفر الشر في رأسك ؟ "

- " شر ! ألهذه الدرجة تراني شريراً أُحيك الخطط وأنفذها .. "

- " وماذا يسمى في رأيك من يخذل أصحابه ، ويفسد عليهم أمرهم ؟ "

- " من حقي أن أعبر عن رأيي بالطريقة التي أرها مناسبة بعد أن تجاهلتم قولي . ولم تعيروني لا سمعكم ولا تعطفكم كأني وهذه

الخشبة التي تجلس تحتها سوأ . "

- " سأقول كل زبدة القول فأسمع إذا أردت أن تعي : لطالما قلت لك مراراً بأن هذا الملعب سوف يبقى ولن يستطيع أحد منا الاستغناء عنه حتى لو أردنا ... "

- " أردتم أنتم لا أنا . " قلت مقاطعاً بحدّة

- " لم يرد ذلك أحد . فلا تقاطعني . لن نترك ملعبنا هذا أبداً طال العمر أم قصر ، وسيبقى لأولادنا من بعدنا ... "

- " هذا إذا أبقاه الزمن ! "

- " أجل إذا أبقاه الزمن والبشر . "

- " أنك تراهن على الوهم .. كل هذا سيصبح من الماضي .! "

- " بل إلى المستقبل أنتظر وأنظر سوف يكون جميلاً يبرق فيه الأمل .. يبرق فيه الأمل يا أبن خالي ... "

- " الزمن آفة الأمل ، والنسيان آفة ما تصنعون " !

جولة الصعاليك

لست أذكر إن كنا خمسة أو كنا ستة .. ستة ، ستة ـ لا لا خمسة بالضبط خمسة صعاليك يقتعدون مقاعد القش في مطعم متهالك تخبو فيه الأضواء وتتدحرج فيه صحون (الفاصوليا) فوق موائد تشبعت بالدهن حتى تغلغل في الخشب فصار سطحها يلمع ، وصارت يد الرجل تنزلق لتطيش باتجاه الأرضية الصفراء للمطعم الأثري الذائع الصيت .

لم أعد أذكر العدد بدقة كأني نسيت ولم أعد .. لم أعد أذكر ، وكأن (الزهايمر) بدأ يستفحل في رؤوسنا التي بذات تفقد نضارتها وتغضن جلدها (تكرمش) مصها الهم .. مرت سنين يا رجال متثاقلة وملئ بالكوابيس ..

تسكعنا في المدينة العتيقة التي مر عليها الغزاة واستوطنها الأفاقون ودك أسوار قلعتها الجبابرة دون أن يرمش لها جفن بل ظلت طاهرة وأصيلة وتتمتع بقدر غير قليل من الجمال، ذاك جمال تكتسيه العفة وتسربله الطهارة يتألق أصيلاً باهرا لا يخالطه زيف ، فمدينتا لا تعرف التبرج أيها السادة ، ولا تعرف أن تحتال على الآخرين .. ولا تعرف أن تعيش اللحظة فهي رهن الازمات والمعارك الحاسمة .. ذاك المساء غير المتوهج ـ لا ينبئ عن فرص مُثلى وإن

كان لا يخلو من حظ ، توجهنا إلى (البرعي) حيث مطعمه الشهير ، ومن في العاصمة لا يعرف (البرعي) فقد صار أشهر من قصر (بالبو) وحدائق (جنة العريف) ، ولمن لا يعرفه حقاً أخبره بخبره فأقول : هو مطعم شعبي شهير له فكرة واحدة يقترحها لكل زائر (الفاصوليا بالكرشة) وهي أكلة شعبية ليبية معروفة لمن نسي ، يقع هذا الذي يطأ ساحته عشاق الفاصوليا بالمدينة القديمة بطرابلس ، كان الهدف الأسمى لرحلتنا في ما أرى .. خطة ذاك النهار بعد تلك المباراة الحامية الوطيس التي ربحنا فيها بدستة أهداف ..

« من ربح إن كنت تذكر ؟ «

« الحظ ! و .. المهارة وشيء غير قليل من المكر . «

ما أذكره أني سجلت أربعة أهداف .. هذا شيء لا ينسى ، آهه . عقلي يقول ذلك .. هنا فقط لا أحد يستطيع أن يحتج على ما أقول ! كانوا دائماً ، وبعد كل مباراة ما يعترضون رغم أني أكثر من يسجل الأهداف .. هذا حقيقي وليس محض أدعاء ، وأسالوا الوادي إذا كنتم في شك مما قلت .. الوادي لا يكذب وسوف يشهد بصدق على ما ذهبت إليه من أني هداف الوادي بدون منازع ، ومن له رأى غير ذلك فليذهب إلى البحر وليعب من ماءه المالح ، أنا أعني في جيلنا لا أعني في غير جيلي ، أولئك صعاليك الوادي من رفاقي ، في زمن مضى كان هناك من يتمرغ فيه مثلما نتمرغ نحن الآن ولكنهم كانوا أكثر براعة في ما أظن ، الوادي لم ينس المصارع إسماعيل والكابتن نعيم والمدرب أمحمد وآخرين لا أعرف أكثرهم ضلوا يصولون ويجولون في

ربوعه الرملية من غير جسر يظللهم ردحاً من الزمن ، فنحن كان لنا جسرنا الصلد .. كانت بصماتهم مغروسة في قاعه الرملي ، الوادي الذي كان مرتعاً للإبداع وملهاة رائعة للطفولة ..

كانت لنا ميزة القنطرة ذات القوة التي لم يفت في عضدها الدهر وإن طوى ذكرها النسيان .. السيول لم تستطع معها شيئاً واستطاع البائس الوحيد في دنيا { الله} ، الإنسي المجبول بالخطايا.. أن يدمرها في ساعات . تلك أيام خلت يا صديقي .. مرصعة على جبين الزمان بمداد رملي ومن الطين وشم ذكرياتنا في رصانة ! لو أن لي أن أسترسل... لكن الذاكرة لا تسعفني في احيين كثيرة .. في أول المساء كنا نلعب الكرة ولم يخطر ببال الخاطر أننا سوف نقضي بقيت يومنا ذاك في (البرعي) ومطعمه ذي الطابقين كأنما بنوه منذ ألف سنة قمرية .. ولكن القدر غلاب غلبنا هذه المرة أيضاً حيث جاء بنا إلى هنا دون أن يترك وراءنا أثرا وحيدا ، وعند العشاء تركنا نتلذذ (بالكرشة النية)في صحبة موائد من خشب وكراسي من قصب ونادل غاضب ونادل مبتسم يروحان ويجيئان وأربعة وعشرين زبونا يهمهم في شغل شاغل عن تلصصي كل منهم يصارع بأسنانه جلدة صفراء أبت أن تتصاع ، وكان صفير المارة في الزقاق المعتم يكمل (سمفونية) عيد الأعياد .

بعد أن انتهت حفلة ركل الكرة واللهث وراءها مثل العميان في مباراة حامية الوطيس القى كل منا جسده المنهك فوق الرملة مثل بالة تبن تعفرت بالغبار وشيء من روث البهائم ، آه كانت تلك متعة ؛ متعة حقيقية .. لا نستطيع نسيانها ! أن تتمرغ فوق كومة من الرمل

البارد وجسمك مثل جمرة تتقد ، تلك متعة قصوى لمن لا يدري !. منهم من ينسى ، أنا لا تبرح خيالي وتبقى عالقة في الذاكرة دون تردد .. فوق الرمل صمت الجميع إلى حين التقاط الأنفاس ، بعضهم صمت إلى الأبد ولم ينبس ببنت شفة في ذاك النهار ليعود في غده بلبلا نشوان ، هذا بالضبط ما كنا نعرفه عنه ، أحدهم بدأ يسرد أحداث المباراة التي لم تكاد تنتهي بشيء غير قليل من المغالاة مما حدا بآخر إلى أن يحتج ، وفي غير قليل من العنف أيضاً . كان هذا دأبنا . كاد أن يتطور إلى عراك لولا أن الإعياء الذي كنا عليه لم يُمَكن الخصمين من الاشتباك الذي كان نهاية كل تلاسن يحدث وإن كان يذهب كريح عابرة خطر لها خاطر غريب أن تلهو بنا ثم تمضي غير عابئة بما يلهو به الصبيان ..

لكن لم يذهب هذا إلى أبعد من كيل شتائم رصينة ، لم تكن من الفحش بحيث تكدرنا على أي حال لآن هذا ليس من طبعناً ، بعضنا قام وذهب إلى حال سبيله ، بعضنا قام ولم يذهب صار يتسكع بين المرميين وهو يحدث نفسه بعدما أضاع أكثر من هدف محقق ، أنا هنا أتحدث عن العندليب ذاك المراوغ الفذ الذي كان يتلاعب بدفاع الخصم في سرعة وبراعة ولكنه كان يطيح بالكرة باتجاه شجرة الخروع لا باتجاه المرمي الخالي ، بعد أن يراوغ حرس المرمي بذاته .. فتحي من مكمنه الأزلي يرشق الكل ، الدكتور لا يلعب الكرة ولم يسبق له أن تورط في مثل هذه البدعة الفاشلة التي تنم عن قلة عقل وسوء تدبير وبعض الهواجس الأخرى .. بهذا كان يؤمن دكتورنا المزيف ، لا يظل يتوسد التراب ويُعلق ويسخر وينصب الفخاخ فقط

بل يقذفنا بالطوب..

واحد صار يشخر من أثر الهزيمة ويهذى مثل عليل أستفحل داؤه ثم نام مثل ميت .. علق آخر على منظره ، وهو يفترش الرمل قائلاً في غير هوادة :

- " هذا واحد مات لغدوه . "

- " ولسوف يأتينا غداً يتأبط لسانين وأذن واحدة طرشا .. "

لم يفاجئنا العندليب وقد بدأ يغني لعبد الحليم (زى الهوى) ولم يعره أي منا اهتمامه ، لكن الدكتور قذفه بحجر ، وأخر قذفه (بغناوة) ؛ - زى الريح تجيب السيل للوادي يكركرك للبحر ، يا علم - أي يجرفك للبحر ، هذه (غناوة علم) تقال في مثل هذا اليوم ، على أثر هذه (التغريدة) المبتكرة ، أصابتنا نوبة ضحك مدوية لم تهدأ إلى أن حث (محمد الهادي) العندليب المزعوم التراب على وجوهنا فنهضنا كلُ هرب في ناحية وهو يدعك عينيه بعد أن توغلت الحبيبات الصغيرة من الرمل الناعم المخادع في العيون المتعبة فتهيجت ، منا من انتبذ مكانا قصيا تحت شجرة الخروع ، منا من أتجه إلى فتحي حيث مكانه المعتاد ، منا من ذهب باتجاه عارضة المرمي حيث توسد الخشب ونام وصار يشخر هو الآخر ، بقى العندليب وحده يتوسط الساحة وصار يغني (صورة صورة كلنا عيزين صورة ..) ، أما أنا فصرت أنفض الرمل عني وأشير إلى الدكتور قائلاً :

- " خذ بالك منهم ليرقدوا ، خاصة ذاك صاحب الصورة الراقد على انغامه . "

وأعطيت وجهي لدرب المحطة سرت حثيثاً علني التقي الحافلة (أم أربعة وأربعين) بعد أن أشرت بيدي علامة الوادع فإذا (بمحمد الهادي) يسألني في احتجاج قائلاً :

- " وين يا طير ؟ "

- " للحوش . "

وإذا بأحدهم لم أعد أذكر أسمه لعله (محمد سليم) يتحفنا باقتراح مفاجئ قائلاً :

- " ما رأيكم بصينية فاصوليا (بالكرشة) من عند (البرعي) ؟ "

- " أما فكرة !!! "

هاج الجميع من فكرته وصاحوا بصوت واحد من أفواه تتلمظ :

- " جبتها !! "

- " بدعة ! " رد فتحي وأردف بالقول :

- " كيف خطرت عليك يا (متكوبس) !؟ "

فإذا بالنائم عند عارضة المرمي يفتح عينه مثل الذئب قائلاَ :

- " (كؤلها بالقزة) " .

أما أنا فقلت :

- " نلتقي عند تمثال (سفيروس) . "

فرد عليَ أحدهم قائلاً :

- " عندك باش يا قصير ؟ "

قلت :

- " خلطوا .. "

دفع كل منهم يده في جيبه حتى غاصت عند قاعه تنقب وتفتش وينبش في الرمل الذي ملأ الجيوب وهي تلاحق الدراهم وما يمكن أن يكون مختبئاً منها في القيعان غير المخرومة تعيننا عن ما نحن مقدمون عليه عند (البرعي) منهم من أخرجها بيضاء يصفر في بطنها الرطب ريح صفصف بعضهم أخرجها زاهية ، واكتشفنا أننا فوق قدرتنا على ثمن العشاء في (البرعي) نستطيع أن نبتهج برؤية فيلم جديد (لبروسلي) لو أردنا في سينما الرشيد بميدان السويحلي المشهورة بعرض مثل هذه النوعية من الأفلام .

سرت على الضفة الشرقية للوادي ؛ وضفة الوادي هي عبارة عن تل ترابي طويل يفصل الوادي عن ما سواه وتحاذيه إلى أن تصل به للمصب عند البحر الأبيض العظيم ، وللوادي ضفتان كأنهما جناحان ، يطيران مع السيل ويمكثان مع الحرَ وإن كان القبلي يزحزحها ويأكل قشرتهم برعونة ولا يشبع ، أما الغربية فأنها تفصل الوادي عن المزارع والأخرى تفصله عن الطريق المعبد وإن كان ما بينهما أي بين الضفة والطريق أرض فضاء لا بناء فيها حتى ذلك الوقت - صارت مكباً كما صار الوادي لكل نفايات الأرض . تركناه وحيداً فعصف به البشر !

كانت المسافة بين ميدان الكرة عند الجسر الأول وبين المحطة كيلو متر واحد تقريباً قطعتها مشياً فوق ضفة الوادي الشرقية مررت بالوكر وقطعت الطريق باتجاه المحطة المواجهة للجسر الأخر المطروق

، كنت أنظر إليه محدقاً في انتظار أن تتدحرج منه حافلة تمشي على أربع يقودها رجل زاده صمت ، وفي ركن محاذي لبابها اللولبي محصل تذاكر زاده ثرثرة وتوقفت في انتظارها في رباطة جأش ذلك أني وأنا أترقب وصولها الميمون ، مرت العشر دقائق الأولي وأنا صامد تلتها ثلث الساعة ، ونصفها ، وساعة مرعبة وأنا أصارع الصبر أمام ذاك الوكر اللعين للشرطة العسكرية.. عفواً بعدها كن صبوراً يا فتى ..عندما هلت ساعتان ولم تطل صرت ألعن الحافلات ومن يقودها ومن صنعها من النصف ساعة الأولي ، لو أني فكرت وعقدت العزم ومشيت مشوار بيتنا حتى على قدمين متعبتين لوصلت قبلها ولو كانت قدماي في قيد ، حتى وإن تورمت من ركل الكرة وتسجيل الأهداف والركض وراء العندليب والصعود إلى مربط الدكتور عند صدر الضفة لمشاكسته وقذف الكرة باتجاهه حتى لا ينام ، ويتحفنا بغطيط القطط ، ثم وهو يهرش شعر رأسه الشائك ، ذاك رأس ملئ بالحيل من قاعه حتى حافته ؛ حيل مبتكرة لا تنفذ .

كنت وصلت إلى بيت أبي وقذفت بنفسي في مسبح الحمام وأكلت كم (عبود زميطة) وتبادلت

النكت مع أمي وارتويت من ماء الحنفية وخرجت بثياب حسنة ضاحك الوجه طلق الأسارير ، ولكن خاب تدبيري وضاع وقتي في انتظار حافلة قد لا تأتي إلى يوم العيد بعد سبع أشهر ،

اللعنة ها أنا مغروس هنا مثل حجر الأرصفة في محطة حافلات (البدري) العارية من أي معلم وحيد .. هل ترى ذلك ؟!

كنا في الربيع وكان الجو هادئ ، والشمس تتحدر في ما وراء أشجار البرتقال ، والأشعة تبرق في وهن من وراء الأغصان المشرئبة في المزرعة المحاذية لضفة الوادي الغربية التي تبدو على مرمى حجر من المحطة ، الريح خفيفة غير مثيرة ، وهذا من حسن حظي وإلا كانت

طمرتني ورأيت من مشاكساتها ما لم أره في الوادي ، لا تتعجل قد يأتيك ما تخشاه بأسرع مما يأتيك الفرج ..

" أي فرج ؟! "

" الحافلة . أنسيت ! . "

" أما زلت تترقبها ؟! أنك إذن لأحمق . لم يربَيك الوادي كما يجب أن يربي أبن الوادي الفطن ،

لو كنت مكانك لسرت في التو ، لقد صرت مضحكة للسابلة إذ تنتظر في عنقاء ، تصور أن مجيئها مستحيل . "

" الحافلة واقع وليست مستحيلاً مثل عنقائك .. "

" أنا لا تعنيني قطعة الخردة تلك ، أنا أتحدث عن الزمن الذي تضيعه من أجل انتظار قدومها ،

الوشيك .. وهي لن تأتي حتى تُعجل بك إلى مرض يُعجل بك إلى حتفك يُعجل بك إلى حفرتك حتماً ربما بأسرع مما تجئ قاطرة الحديد وهي تسحب وارها سحاب فظيعة من الدخان . "

وحيداً كنت وكانت المحطة وحيدة موحشة مثل مقبرة ، وكان الملل يهلكني ، والانتظار يفتت أعصابي ، فجاءت وأنا هائم في بحر من

السأم المتلاطم يناوش أفكاري المبعثرة في كل وجه بلا طائل ، هبطت عليَ شلة الصعاليك كأنما أمطرت بهم السماء أو انشقت عنهم أرض المحطة الحزينة ..

- " هه . لازلت هنا . أيها المعتوه من أخمص القدم إلى أخمص القدم الأخرى .. "

لم يكد يكمل جملته حتى أقبلت اللعينة أم الأربعة والأربعين ، أنا فقدت الحافز ولم أعد أريدها كرهت الصعود إليها لكنهم رفعوني عن وجه الأرض برملي وشعثي وحذائي المطاطي فوجدت نفسي فوق كرسي من خشب يخالطني شعور غم أهرش رأسي فتخرج يدي صفراء ، رمل رمل وكثير من الحصى ، أهرش جسمي فاسمع له صوت احتكاك الحبيبات بالقميص المهلهل ..

سأكل الفاصوليا اليوم مع رملي .. لا تحزن بعضهم أكلها بسوس ،بعضهم بلحم جرذ أصفر

أو أسود أو بني هجين تخالطه حمرة .. نمساوي عريق أو ايطالي همجي أو محلي مشاغب .

ظل الأصدقاء يتناوشون لكني كنت مهموماً فلم أشاركهم فيما كانوا يخوضون فيه ، حتى حملوني على النزول عند (سفيروس) المغروس عند ظل سور السراي الحمراء العتيق . كانوا أربعة (محمد الهادي " العندليب " . وفتحي " الدكتور " . ومحمد سليم ، . مجيد "

الشاطر حسن ") وجوه نظيفة أبدان نشيطة ملابس أنيقة

وأحذية أما أنا فمازال الرمل يملأ رأسي ولا تسأل عني فأني أشعث أغبر بحذاء مطاطي أبيض بخيط أسوَد مثلما أسوَد وجهي

.. جاءوا وصعدوا بي ، ونام الصنم ، ولم أدري بنفسي إلا ورفيق يسأل :

- « كيف الحال يا حاج برعي ؟ »

من هذا إن كنت تدري ؛ لم أكن أنا من قال ذلك ، لكني سمعت الصوت مثل من سمعوا ، اللعنة كأن الجني (بشار) جاء معنا .. صوتاً أجش مثل من قال :

- « في خير من { الله} في شر من العباد ! »

- « ها هو يرحب بكم يا أشرار . »

قلتها في نفسي ، وقالها آخر كأنه التقطها من فمي . قالها همساً فلم يعلق أحد وإن ظلوا ساهمين يمشون كالظلال .. اختاروا مكاناً قصيا معتماً ، كان محاذياً لنافذة تطل على زقاق مظلم بجانب نافذة صغيرة ذات زجاج أزرق باهت ومعتم مفتوحة على عتمة الزقاق .. أقبل نادل المطعم مقطب الجبين بعينين ناعستين ووجنتين ذابلتين وشعر دهني يخفي أذنيه لم ينبس ،، انتظرناه أن يقول تفضلوا ويسأل عن ما نطلب من مطعمهم المميز .. بدأنا نحن ، لم أعد أذكر من بدأ لكنه قال برعونة :

- « نريد (الفاصوليا بالكرشة) مع مقبلات ، مع مشروب (بتر) لي . »

- « أنا فاصوليا مع (ببسي) » . قال آخر

- « فاصوليا مع (فانتا) . » قال الثالث

- « فاصوليا حارة مع (كوك كولا) . » قال الرابع - « وأنت يا ولد .. » سألني أحد أفراد الشلة

- « آه . (دلاع) ! هات لي (دلاع) . »

- « تلقاه في (سوق الثلاث) .. »

رد النادل البائس ، ورحل عنا غاضبا وأظنه من كثرة ما طلبنا ، اعتقد أننا نستهزئ به ، مع ما

كان فيه من غل بعد أن قذفنا بجملته ، وتركنا مندهشين نبحلق في بعضنا بعض ونتلاوم .

- " ما رأيكم في ها لجلسة يا رفاق ؟ "

- " أمتاع ومؤانسة لولا وجودك معنا . "

- " أحتمل المر وتغريد الأطفال ، وأنت في (البرعي) . "

جاءتنا الطلبات مع آخر يبتسم وبدا انتهت الأزمة التي ربما كانت ستتفاقم خاصة وأنه تجاهلني تماماً ولم يأتوني بشيء ، فصرخت في وجه النادل المسكين قائلاً :

- " وأين ما طلبت أنا .. "

أسكتني أحد أفراد الشلة قائلا :

- " أنتظر . هات لهذا الشاب فاصوليا و(ببسي) . "

- " لا . أريد فانتا . "

- " هات له (فانتا) وأرحنا من لسانه . "

- " ما حال الفاصوليا معك . "

- " حامضة ! "

- " فقط ! إذاً كُل وأنت مطمئن . "

- " وما حالها عندك . "

- " لا يسبح في الحساء شيء غير الفاصوليا . "

- " والكرشة ! "

- " مطاطة مثل جلدة حذاء قديم ملقى في مزبلة ، لكن مذاقها حلو .. "

- " إذاً حاذر من الأسلاك . "

- " أي أسلاك لعنك { الله } ؟! "

- " إذا ما كانت مثل حذاء قديم فحتما تحوى شيء من السلك والمسامير أيضاً . "

- " ليس فيها شيء من هذا ، لكنها تعلق في الأسنان . "

- " إذاً حاذر أن تأخذ أسنانك معها . "

انتهت الحفلة - لم اعد أذكر الساعة فلا تسألني عنها - تركنا المطعم ، واستلمنا الزقاق : كان معتماً مثل مغارة ، ساكناً مثل مقبرة ، ضيقاً مثل حوصلة عصفور، تخاله يختفي في جبة وحش.

- " لم أكن أعرف أن للوحش جبة . "

- " هذا وحش أدمي يا غبي ! مثل ذاك الذي رأيته بليل في مستشفى المجانين في (بيروجيا)."

ـ " ولم تمت ؟ "

ـ " لم أهـرب حتى . واجهته وفي ركبتاي مـاء ، أسناني كانت تصطك ، وقلبي سقط فوق رأس المعدة . "

ـ " أي رأس ؟؟ "

ـ " شيء يسمونه الفؤاد . "

ـ " القلب . "

ـ " لا . كيف يسقط القلب في القلب ، أنه شيء خاص بالمعدة يقود إليها مباشرةً ، يعرفه أطباء البطن . "

ـ " آه ، وبدا اختلط مع الفاصوليا ! "

ـ " أي فاصوليا ؟ لم تكن هناك فاصوليا ، ما كان فيها إلا عيدان (السبكيتي) من عشاء البارحة أعني لما كنا هناك ، وزجاجة ... "

وبتر جملتي بتراً قبل أن أكملها كعادته المريعة ..

ـ " زجاجة خمر ! أليس كذلك ؟ "

ـ " لم تكن كذلك ، لما لا تنتظر . لا تسبقني كلعابي !؟ كانت زجاجة ماء كاملة شربتها حتى انتفخت بطني ، وأحسست قلبي يترجرج من أثر الماء . "

ـ " وماذا جرى بعد ذلك يا شارب الماء ؟ "

ـ " اجتزنا الزقاق ، ودخلنا الميدان . "

ـ " أي ميدان ؟ أنا أسأل عن وحش المستشفى . "

ـ " لم أعد أذكر . "

من الميدان إلى شارع (عمر المختار) ومنه إلى شارع (الرشيد) ثم ميدان (السويحلي) حيث تنتظر الحافلة قدومنا المظفر .

- " تحسبون أنفسكم شيء يذكر ، لطالما كانت تروح وتجيء فارغة ، بل أنها لا تكلف خاطرها عناء الوقوف في مرات لا حصر لها ، حتى والمحطة مكتظة بشراً وحاجيات .. "

- " أنها مأمورة من وغد لا يدعها تتمهل ، صدقني . كان الميدان يعج بهم في حالة انتظار صامت . "

أغرنا إعلان عن فيلم معروض فوق لوح على جدار مبني السينما بالدخول .. فالرشيد كانت متخصصة في أفلام (الكارتيه) و(بروسلي) كان يلعلع ! ولكن ما تبقى معنا من دراهم لا يكفى

، فإذا ما دخلنا السينما سنبيت في الميدان ، قال الرجل (جابي القاعة) سيبقى الفيلم ثلاثة أيام أخرى ، فلا تبتئسوا يا شلة الوادي المتيمة بالبرتقال ..

صعدنا الحافلة واحتوتنا الكراسي ، وظل كل منا متكئاً برأسه يبادل مقعده الصمت ويؤنسه ،

يحدثه إذ ما طاب له الحديث بعد ذاك الفيلم المثير الذي لم نحضره أو يتوسد حديده البارد ..

كانت مظلمة الحافلة ، والمحرك يهدر ، والهيكل يتمايل ، والسائق يدخن ، والجابي يسعل ، ونحن نائمون ، وهي تركض ، ظلت تركض باتجاه الهضبة طول على أحر من الجمر .

الغفير أبو الليل

الليل شبح عظيم مسكون برعب أزلي يجعل من الأشجار قرونا ورؤوسا وأذرعا يجعلها تمشى .. يجعلها تهجم .. يجعلها تنقض ، ويجعلها طاغية بحقد يزلزل الأفئدة ويمحق كل أحساس بالطمأنينة يمكن أن يشعر به المرء تحت ضياء الشمس التي تغرس نفسها كالطود في قلوبنا الطرية ، ولكن عند حافة هذا الليل الأسود يذوب وهج النفس ويتراجع ضيائها إلى حين ..

الدروب الضيقة المتربة والرطبة مخيفة حتى الموت يحاصرك عفريت قادم من غياهب الظلمات .. نجتاز الأشجار المتشابكة برؤوسها الشيطانية بقدرة قادر.. لا أعرف كيف أحتمل القلب المرور من بين أذرعها ولم ينفجر ؟ مررنا أخيراً من تحتها دون أي مكروه حيث وصلت القلوب الصغيرة في نهاية مشوارها العنيف إلى الكوخ القابع في الطرف الآخر للمزرعة المسكونة في صمتها المريب .

قال أحدهم أو أحدنا لم أعد أذكر أسمه ..كانت نبرات الصوت مختلفة مما بعث الشك في نفسي :

ـ « هذا كوخ جني فكيف أدخله .. »

قال آخر لم أعد أميزه أيضاً :

ـ « ألم تدخله الليلة الماضية ، والليلة التي قبلها ، والتي قبلها ،

والليالي الفائتة كلها من يوم وطئت رجلك هذا التراب .. ما بالك هذه الليلة إذا كنت خائفاً أشعل النار فيهرب الجني .. «

قال الذكي فينا :

ـ « لكن الجن مخلوقات نارية فهي مصنوعة من جمر النار ... «

عادت نبرات الصوت الغريبة فتعمدت أن أقطع الرطانة المريبة متعجباً ، وليحدث ما يحدث .. تُرى ما يكون رده عليّ ؟ خِفت أن يكون ما ذهبت إليه بفكري وشكي حقيقياً على نحو ما .. فأصابني رعب طاحن كاد يمحق نفسي فتراجعت ، وحتى لا أموت تحت سياط الشك ، كان لأبد أن أهجم حتى أطيح به ثم كان لأبد لي أيضاً أن أدلي بدلوي في حديث النار هذا فقلت دون وعي لم كنت أقول :

ـ « أذن فالنار تجمعهم لا تفرقهم . «

نظر الأولاد إليّ ، ونظر كل منهم إلى الآخر بعضهم كان مندهشاً ، بعضهم غير مبال .. بعضهم لم يفهم أو هو لا يريد أن يفهم فأنبرى الفتي الذكي ليزيدنا فهماً أو خوفاً أو اندهاشاً قائلاً في تبجح طفل مغتر بنفسه وبما يملك من أضافات نجهلها أو هو يعتقد ذلك :

ـ " أنها تُفرحهم في الواقع بل وتسعد قلوبهم المخلوقة من صخر الجمر .. "

إذن لم أكن وحدي كان الكل يرتاب وكان الشك هو المخلوق البشع الوحيد الذي يتطاول بلا صولجان في مملكة الجان هذه التي تحف بنا ، وتستوطن الليل والمكان وساعة النحس التي جاءت بنا إلى هنا . وفجأة أنطلق صوت أظنني أعرفه متسائلاً في حيرة لا شك مبعثها

الخوف المسيطر على نفسه :

- " ماذا الآن . هل اشعل النار أم لا ؟ "

- " اشعل ! "

قال الولد الذكي ، فلتفتنا إليه جميعاً تقريباً إن لم أنس لأن هناك واحداً من الجماعة لا يحب مثل هذه الأحاديث ليس لأنه من أولئك الجبناء ولكن لأنه مثل الجن تماماً .. هذا ما إذا كنا في منأى عنهم . وأكمل الولد كلامه العجيب بأن قال :

- " سوف تجمعهم النار وسوف يقذفون بأنفسهم فيها .. أما في الظلام فهم يتوزعون في كل مكان ؛ في وسط الكوخ وفوقه . تحت الشجرة وبين الأغصان . فوق رأسك أو تحت ثيابك . كل الأمكنة يمكن أن تحوي فرداً أو أكثر من هؤلاء القوم ... "

فصرنا نتلفت حولنا ونمسح على رؤوسنا وننفض ثيابنا وتتلصص منا العيون خلال الأماكن التي أشار إليها رفيقنا الذكي الذي كنا ننظر إليه خائفين ومتعجبين ؛ خائفين ولسان حالنا يقول ؛ هذا ليس من كلام الناس أنه من كلام الشياطين .. ومندهشين ولسان حالنا يقول ؛ تُرى من أين أتي هذا الولد بكل هذا وهو معنا لا يُفرقنا لا في الليل ولا في النهار .

أنقسم الأولاد بين رافضٍ للنار ومصمم عليها .. أما الأصوات الرافضة فكانت طاغية على صوتي الذي كان الوحيد الذي لا أشك في نغماته - أرجو أن لا يحدث هذا في يوم من الأيام - لكن فطن آخر أظنه الأكول بيننا ذكرنا بأننا اتفقنا على أن نطهو الطعام .. فكيف

نطهوه إذا لم نشعل النار؟ كانت هذه نقطة حاسمة ..أذن فالأكول كانت حجته أقوى بكثير من الرفض الذي بدأ سيستولي علينا كي لا نشعلها ، وانتهت أخيراً قضيتنا النارية بإشعال نار عظيمة أضاءت ما حولنا حتى كاد يفتضح أمرنا .

أقبل الظريف الأكول بالعدة وبالعتاد وبدأ في إعداد الوجبة مكرونة (مبكبكة) بأسلوب ليبي صرف ؛ أكلتنا الليبية المذهلة التي تمشي على حرف حار .. تركناه لحاله يخلط التوابل ثم وكأنما أندحر الشك والجن ، دخلنا الكوخ وقد زال عنا بعضا من الوحشة والخوف والشك بعد أن قال أكبرُنا :

- " ما الخطة الآن في هذا الليل البهيم . " ؟؟

قال آخر :

- " أنا حتى لا أرى موضع قدمي ، وسوف نؤجل العنب إلى ليلة أخرى ... "

الكبير قال مقاطعاً :

- " لا ، لن نؤجل شيئاً .. "

لم يكاد كبيرنا يتم جملته حتى انبثق من السماء السوداء قمرٌ منير أضاء الكون ، وفرش الدروب بالضياء .. أنتشت قلوبنا الصغيرة وغادرها بعض خوفها ، وفجأةً تزينت تلك السماء التي كانت قبل برهة كالحة تسكنها الوحشة ويتوشح سحابها سواد همجي لم نره من قبل ، تلونت بضياء أبيض منير مطمئن منتشر .

- " آهاه مكتوب لنا أن نذوق العنب . "

قالها أحدنا فرحاً حتى أني لم أنتبه لقائل هذه العبارة التي أعدتنا للأرض بعد أن كنا نحلق مع الضياء ونمتطي النجوم ونتمسح بالقمر ونحلم بالعنب و باللعب فوق ظهر عشب أخضر مبلول لتوه !

- " من سيدخل الليلة ؟ " قال الكبير .

- " أنا ! " قال أحدنا

ثم قال آخر بصوته المكتوم :

- " أنا ! " واشار إلى وجهه المزيف .

- " ولما لا أكون أنا ! " قلت بملء صوتي الذي أدفأته النار .

- " كلكم !؟ ومن سيبقى ؟ " قال الكبير ، وأردفنا بحله التقليدي .

- " الحل الوحيد أن نقترع ومن تختاره القرعة يبقى هنا ومن تخطئه يذهب معي . "

- " ولماذا لا تدخل القرعة مثلنا ؟ "

كان هذه سؤالي أنا لأني أعرف أن القرعة سوف تتخطاني . أحسست بذلك ، أما هو فقد كان فعلاً أكثرنا دراية بالمسالك والأمكنة والدروب ، وقد كنت أعرف أن احتجاجي لا جدوى من ورائه لأنه أكثرنا جدارة بالقيادة .. وكان هذا أكثر من صحيح .

- " أنا رئيس الفريق . "

كان هذا رده ، وكان لا يبدو حاسماً وإن كان كذلك فعلاً ، ولا مجال وراءه أيضاً لأي نقاش

بعد القرعة التي أنصفتني هذه المرة ، ورفيق آخر من محبي

العنب ، والكابتن العراف بخبايا المسالك والمجاهل الذي أنطلق أمامنا كدليل فطن في درب شوكي صعب إلى الثغرة التي فتحها مجهول في غابر الأيام .. تُرى من يكون هذا الغضنفر ؟ لا أحد يدري من فك الطلسم وحل شفرة سورهم العتيق .. وأعد لنا من ذلك طاقة كي نمر لحدائق الدوالي الذائعة الصيت

عبر سياج من أشواك الحديد وحراشف الخشب وأسنان المسامير المميتة ، كانت طاقة تحت سطح الأرض صغيرة ومختفية عن الأنظار لا يمكن رؤيتها لأنها متوارية خلف الأشجار إلاّ لمن يعرفها مثلنا وأظن أن سكان المزارع لا يجهلونها كذلك ـ كأننا نسينا في غمرة هذا الحماس وما بثه فينا هذا الضياء الجميل من طاقة دحرت الوسواس الرجيم ـ كنا نعرف مكانها بدقة ونعرف بأنها كانت من الضيق بحيث لا تسمح للأكول مثلاً بالتوغل عبرها ـ لذا فهو مرتاح الضمير ولا تشغل باله هراوة الغفير ـ أما نحن فلابد أن نحبو على أربع ؛ يدين خشنتين وركبتين متينتين كي نعبر زاحفين يمتطي كل منا ظهر الرملة ، ويعفر خذيه بحبيباتها الباردة يحف بنا الليل وشقاوة الطفولة ، والرغبة في أكل العنب كما في كل مرة حتى كدنا ندمن عليه .. مذاق رائع لا يوجد له مثيل على قدر ما نعلم في طول البلاد وعرضها .

" من قال هذا ؟ أنا لا أستبعده ذاك ألأكول الشره ، تورط مرة وقال ذلك . "

عند الفتحة توزعت المهام أنا للحراسة ، ورئيس الفريق للقطف

، والثالث الذي لم أعد أذكره لاستلام الأسلاب وجلبها للحفرة حيث أكون أنا حارساً ينتظر الغفير الذي لن يأتي لأننا كنا نعرف أنه آفة من آفات النوم ، ولن تقوم له قائمة طالما الليل يرخى أجفانه على ظهر البسيطة ، ولو قامت فوق رأسه معركة كونية ، ولكن كان لأبد من توزيع الأدوار على هذا النحو ، هكذا تقول الفطنة فلا أحد يدري ما يمكن أن يحدث .. ولكن لم تأت الرياح هذه المرة بما اشتهينا فقد قبض الغفير على الرئيس متلبساً بالجرم ، وقبض على الساعي بعد أن تربص له الغفير الجديد (أبو الليل) كاد يقبض عليّ أيضاً بعد أن حاولت التوغل نحوهم عندما شعرت بما يريب من تأخر الساعي وصوت أقدام تتلاحق ولهاث ، وما هالني إلاّ وصديقين يزحفان خلفي بعدما شعرا بما شعرت به من أصوات غريبة لم تكن هذه المرة إلا أصوت بشرية صميمة تسب وتلعن وتصرخ وتستغيث ، وعند اقتربنا رأينا ذاك العفريت البشري دبابة من لحم ودم طويل حتى يقول الطول كفاني ما عدت أريد مزيدا ، وعريض حتى يستحي العرض أن يُظهر نفسه للناس كي لا يسموه (غوريلا) ، ولأنه بمثل هذه الضخامة فقد رأينه بسهولة ، وكان أيضاً هدفنا سهلا لمقذوفاتنا الحجرية التي أنصبّت عليه كأنها شهب انهالت من السماء فنشغل بها عن رفيقينا المحجوزين عنده اللذان أنفلتا من بين يديه كغزلين نجا من براثن عشيرة من التماسيح الدموية ، وركضا نحونا وركضنا معاً حيث الثغرة ومنها إلى النجاة ، قال الرئيس وهو يلهث فرحان بنجاته :

ـ " قد نجونا من الهلاك بحق . "

قال رفيقه الذي كاد يلقى حتفه من جرا لطمة تخطته ولو صدفته لمات :

ـ " لقد رأيت الموت بعيني لأول مرة ـ أيها اللعين هذه المرة الخمسمائة التي تردد فيها مثل هذا القول ـ لن أدخل هذه المزرعة الكريهة مرة أخرى ـ لا تقولوا لي ذلك أيها الأشقياء ـ ولو وضعوا رأسي تحت شاحنة تنقل الخردة . "

ـ " خردة ! لو أنها قتلك لما كان للشاحنة إلاّ أن تقول آه أخيراً ارتاحت من هذا البليد .. "

ـ " لو فيك خير ما وضعوك على حفرة حقيرة مثل شكلك . "

لم أرد عليه كأني لم أسمعه لأني كنت من بدأ بالإساءة ، وما كان يجب أن أقول له ذلك.. لكنه بليد .. فهل هناك بني أدم صحيح العقل يقول مثل هذه العبارة التي لا تتم إلاّ عن التفاهة .. يال هذه التفاهة كم تحتمل حتى أنها تكاد أن تنفض يدها منا ولسان حالها يقول : كيف وصلت أنا إلى هذا الحد ، ولكني كنت بمثل ذلك من البلادة التي تسير على عكاز من خشب كرمة متحجرة !

استقبلنا الطاهي (بالمبكبة) كانت حارة وساخنة فغرقنا في العرق فلم نكد نبدأ حتى سكب فيها الأكول نصف زجاجة من مشروب (البيبسى كولا) فقذفناه بالملاعق ونهضنا فكرت أن أقذف في الصحن التراب نكاية فيه لكني عدلت عن ذلك رأفت به ومخافة الحرام .هل كان حقاً حراما؟ ولكني فتى غر ، وسوف يقع هذا الجرم على الجني الصغير الذي يرافقنا أينما ذهبنا ، فكلما وقعت في مازق استعنت به

وهو كان ينجدني دائماً ؛ صديق الظريف (بشار) .

ظل يأكل حتى انتفخت عيناه و ارتمى على ظهره يزأر مثل بعوضة .. الزئير للأسود كيف مسخته حتى صار للبعوض أيها الناكر للجميل .. لو كنت كذلك لقذفت فيها التراب .. لكني لم أفعل .

" ترى من هذا الأكول من بين الصبيان الأشاوس الذي يتجرأ ويخلط أكلتنا المفضلة بالمشروب الأسود ؟ لو كنت مكانك لقذفت فيها التراب حتى يرتدع ، حتى لا يفكر في مثل هذه الخلطات التي تشوه سمعتنا .. خسارة أنك لم تعد تذكره .. هل كان فتحي ؟ "

" فتحي ؟! لا لا . لا أظنه يفعلها .. فليس له أيما فائدة يمكن أن يجنيها من وراء ذلك فلماذا يفعلها وهو أقلنا جميعا نحن وأولاد الجيران وأولاد القرية وصبيان المدرسة شهية للأكل . "

" هل كان (محمد الهادي) ؟ "

" ولا (محمد) .. ولكن ربما فهذا الصبي الطويل عاشق (العندليب الأسمر) لا يعرف أبداً حتى مما تتركب (المبكبكة) علاوة على طبخها فهو حتى لا يعرف كيف يطهو الشاي ثم أنه لا يحب (البيبسى كولا) .. "

" لماذا أنت متحامل عليه ؟ "

" أنا ! أن هذا الصبي (محمد الهادي)أحبّهم جميعاً إلى نفسي وأقربهم إليّ على الإطلاق.."

" أذن لابد أن تكون أنت . "

" أنا ! أنا أكول أجل . أعترف بذلك .. لكن عقلي أضعف من أن

تخطر في باله مثل هذه المسائل الشيطانية .. ثم أني لست أهوج . "

شعر الأكول بأن فعلته كانت في توقيت مهين فنحن وقلوبنا مازالت في أقفاصها ترتعش من هول ما رأيناه ، وحتى يكفّر على فعلته المشينة التي هي من وسوس (الشيطان الرجيم) ، وأظن أن الشيطان نفسه لا يخطر في باله مثل هذا التدبير الذي لا يصدر إلا عن أحمق ..

فقد فجاءنا بما لا يخطر على البال .. أقبل علينا بالعنب الذي تصورنا أنه ضاع لكنه كان قد جلبه من وراء الثغرة بعد أن شعر بالخطر يداهمنا من خلال ما سمعه من جلبة ، فأنقذ العنب ، وتركنا نحن لمصيرنا المحتوم علينا ، كما كان قد قال ؛ ومن يستطيع أن يمنع أو يغير أو يوقف المقدَر المكتوب ، ذلك شيء لا يسعه أن يفعله لا هو ولا ألف من شاكلته . أنتهي دفاع الأكول الشديد الإقناع والمنطقي والذي لا يمكن ردعه أو تفنيده بكل ما في مذكرات المحامين من براعة يقف أمامها الخيال مذهولاً يفكر في ما سيصيبه .. ها أنت تصرَح دون وعياً منك بعد أن أذهلتك المصيبة التي لم يكتمل أُوارها بأن ما فعله المنقذ هو الصواب بل أنه الصواب بعينه الأشد وقاحة التي لها قدرة عجيبة على التبجح ..

لم نكد نرى العنب حتى سمعنا نباح الكلاب فلتفتنا جميعنا باتجاه الصوت الذي صار يقترب حتى تراءت لنا تلك الوحوش تجري نحونا مكشره عن أنيابها تحت ضوء القمر فقفز فتحي إلى الشجرة التي أعتلى أغصانها في خفة قرد ورشاقة فهد وخوف غزال طريد : كان هذا الفتى أذكانا (ليس في هذا تحيز أو مغالاة) ، وأنتشر الباقون

كلُ نحو صوب ما كان ليختاره لو كان يدري أو يعي ؛ شرقي وغربي جنوبي وشمالي ونحو الكوخ الذي كان من نصيب الفطن (محمد الهادي) الذي أغلق بابه عليه وظل ينتظر الفرج من أيما طريق يجئ ... الأكول لم يدري بنفسه إلا والطنجرة بين يديه وقد أخترق الثغرة إلى مزرعة العنب حيث الغفير ينتظر بفارغ الصبر ... الآخرون لم أعرف مصيرهم بعد .. أما أنا فقادني خوفي ورجلاي وركضي إلى (مزرعة الرومي) هناك وقعت في كماشة مرعبة بين كلاب الرومي ، وكلاب الغفير وكان من حسن الحظ أن سخر لي {الله} بركة ماء فألقيت بنفسي فيها ، فيئست مني كلاب الغفير بعد أن ظلت تنبح فوق رأسي حتى كاد قلبي أن يتصدع ، فتراجعت عني ، أما كلاب الرومي فبقت مكانها تنتظر أم لعلها تحرسني من كيد المحليات ، كانت أقل نباحاً فاستأنست بصمتها وحمدت {الله} أن الكلاب لا تتقن السباحة ، وهي لم تتجرأ لخوض الماء من أجل فريسة تافهة مثلي لا تغني ولا تسمن من جوع الكلاب ، هنا عرفت أن للتفاهة قيمة ، ومن ضمن فوائدها أنها قد تنجيك من أنياب الكلاب .. رجعت كلاب الغفير إلى رفقائها التي كانت ترابط تحت الشجرة كما رجعت الكلاب الأخرى التي كانت تلاحق باقي الشلة وظلت تنبح حتى الصباح تحت المكان الذي علِق فيه (فتحي) فوق الشجرة ، و(محمد الهادي) في الكوخ وقد أصبح يغني لها أغنية (موعود بالعذاب يا قلبي) حتى سكتت عن النباح الكلاب وانسجمت مع الغناء الجميل لمطربنا الموهوب .. ظلت مجتمعة حول النار تأكل العنب ، وتلعق من حساء (المبكبكة) مستمتعة بالغناء الأصيل من خلف صاج الكوخ المغلق ، ظل

المسكين يغني حتى الصباح ، وكان إذا ما فكر في إعادة نفس الأغنية تضج عليه الكلاب بالنباح، لكنه ومن حسن الطالع كان مثل ذاك القاموس الممتاز لكل أغاني العندليب المعروفة .

عند شروق الشمس وكان (محمد الهادي) قد بدأ يغلق مفكرته الغنائية لحليم العندليب وصار لزاماً عليه أن يأتي بالجديد ولأنه يعرف أن الكلاب حتى وإن كانت تحب الغناء فأنها حتماً لا تفقه كثيراً في أنواعه العديدة لذا فقد لجأ لبعض الأغاني الأخرى القريبة الشبه بما كان يغني لها حتى لا تتنبه لاختلاف الألحان .. لكن الكلاب تعبت من الاستماع ومن النوم ، ومن أكل العنب ، ويبدو أن العنب لا يغني عن جوع الكلاب فقد مضت متقهقرة إلى مزرعتها منتشيه من الأغاني والعصير والحساء الأحمر الحار .. أنتظر (فتحي) حتى غابت وراء السياج ونزل بهدوء من فوق الشجرة وقفز إلى الأرض المبللة ببول الكلاب ، وأنطلق يجري إلى بيتهم لكنه تذكر(محمد) الذي كان مازال يغني ، دق عليه بهدوء باب الكوخ أنتفض (محمد) ورفع صوته بالغناء .. هل تصور أن من كان يدق عليه الباب كلب من كلاب الغفير أم الغفير نفسه ؟ لكن (فتحي) همس له فأطمئن وفتح الباب وجلاً ، وعندما راءه أحتضنه وانطلقا كل منهما إلى بيته بقرية البدري الرحبة .. لا يصدق كل منهما نجاته من ليلة كلاب الغفير .

انتهت محنة (محمد الهادي ، وفتحي) . أما ما أنا فيه فلم يكن محنة كان بلاءً وكان سخطاً ووبال فكلاب الرومي لم تكون ككلابنا ؛ التي لا يسكن قلوبها حقد بل يسكن قلوبها وهن . فهذه الرومية ثقيلة الدم بشعة إذا ما نظرت إليها أصبتك غمة وغثيان ، وهي لا تنم ، ولا

أبواب النجاة فزحفت من البركة واعتليت الربوة فرحاً بالخلاص .

أظننتها !

ولكن هيهات فالوحش الذي يرتدي زي كلب كان يترصد سكناتي وحركاتي وأنفاسي وتموّج الماء في البركة الظلماء، فزحف من وراء الربوة والتقطاني عند السفح عيناي في عينه والشرر بيننا ، ماذا يظن ؟ أيظن أنني أسلم له لحمي على كف استسلامي . سأقاتل لأجل البقاء . سأقاتل عن وجودي . .هل أقاتل ؟ بكل ما أمكنني لأنقذ كرامتي قبل جلدي وشحمي ولحمي ، حاصرني الكلب ولا مفر لي إلا النضال لأنجو .. هذه معركتي الآن .

فكرت في الهرب حقاً ؛ أمن كلب يا بني أدم يا مغرور ؟ فضلت الموجهة والتحدي فضلت القتال .. وعند اقترابه مني رأيته أضخم مما تصورت أشرس مما خمنت ، وقبل أن يخطر ببالي خطة لموجهة خطره الداهم هجم عليّ ، وهكذا قلت انتهيت صرت ذكرى ما لها من الزمن مزيد ؛ آه يا عمري .. قد طمسك كلب ومحق زمانك وما تفخر به وما تريده وما تنتظره .. هذا آخر ما قدّر لك ، أن تكون نهايتك على يد ومخلب وناب كلب : ولو كان شرساً ، ولو كان ضخماً ، ولو كان رومياً ، ولو كان وحشاً له طبعه وشكله وقوته .. ولكن القدر كان فوق ما أريد ويريد الكلب ، فقد أقبل من وراء ضباب الفجر فارس باتجاهنا ينهر الكلب الذي اختفى كأنما ذابت شراسته كأنما تبخر عنفه كأنما لم يكن كأنما لم أراه أبداً ..

نظر إليّ الفارس من فوق صهوة الجود من فوق لتحت ومن تحت

تنبح ، ولا تتراجع ، ويبدو أنها مصممة على الفتك بي ، واستخلاص أمعائي من بطني جزاءً وفقاً على ما ارتكبت من أثم اعتدائي على الحرمة المقدسة للأرض الرومية ، ولن يوازي أو يوافق هذا التعدي غير دمي وأمعائي ..

كان الصمت والظلام يغري عيناي بالنوم ، والانطواء تحت جلباب العتمة لكن الخوف يمنع الاثنين من لذيذ الراحة ، ومن أين لي الراحة وقد تجمد جلدي وتكلس فصار أبيض مثل كفن الميت .. ما أن انكسرت حدّة العتمةِ بفجرٍ بهي الطلعة واضح القسمات حتى رأيت الكلاب كالضباع تحوط البركة كإحاطة السوار بالمعصم . فأينما وليت وجهي رأيت كلبين جاثمين ينتظران .. من أين أتت كل هذه الكلاب اللعينة ؟ كانت ضخمة ذات وجوه كريهة ، وعيون يلمع فيها نهم غريب كأنما ما أكلت من يوم خلقت .. أو تنتظر لحمي حتى يخفف من جوعها المقيم .

ولما أسفر الصبح بعد الصمت السرمدي عن حوافر حصان تدق الأرض ، وصوت بشري إذ بالكلاب خلف نداءه تنهادى ، وبقى في جواري يحرسني وحش دموي .. ما الذي يجري ؟ فهمست إليه أحدثه ؛ أذهب معهم هناك وليمة من أمعاء الاسماك سوف يحتفلون بها دونك فلا تدعهم يخدعونك . فشكرني وكأنما لسان حاله يقول ؛ أسكت يأبن ستين كلب عربي خامل .

ترى لماذا تخلف هذا الكلب اللعين عن باقي القطيع ؟ كانت سانحةٌ خلتها من حظي السخي أن أفر من سجني .. كنت أظنها فتحت لي

لفوق تملَ مني ثم سأل :

- " هل أخطأت الطريق يا فتى ؟ "

نظرت إليه وبي فرح عارم تطقت به عيناي وملامحي إذ أراه والفرج يلوح ، ولم أحير جواباً فقال :

- " درب المزرعة من هنا وليس من خلال بركة الماء التي يبدو أنها استضافتك لبعض الوقت."

كانت عيناي معلقتان بالحصان وبالفارس تتبدلان النظر إليهما وفرحي قد أستخف بعقلي فقال ، وقد لوي عنان فرسه باتجاهي :

- " قد تمرض عندنا إذا ما بقت هذه الملابس على ظهرك ، هذا ما لا يحمد عقباه .. عيبا علينا أن نراك هكذا ولا نسعفك بما يتوفر لدينا ؟ هذا عيبُ صريح فأنت اليوم ضيفنا بموقد جئت لترى ألعابنا .. فهيا معي قبل أن تأتي الكلاب .. "

جفت ثيابي فوق ظهري ، وتكلس فرحي في قلبي ، وتحنط لساني في حلقي ، ومت خجلاً ! هل هذا عربي ؟ أما اللغة فعربية صريحة ، وأما شكله فأبيض يميل إلى أن يكون أشقر ، أما أسلوبه فليس لنا ؛ لو كان من بني العرب لقبض عليّ واتهمني بأني همجي وأني وراء الشر الذي أصابهم من مائة عام تصرمت عليهم محنطين في جهل مطبق ، و كال على كتفي مئات التُهم ثم سلمني بعد الشتائم لكلابه كي تنتقم مني ..

ما أدري بنفسي إلاّ وقد خطت رجلاي وراءه حتى وصلت الناس التي كانت قد تجمهرت لحضور الألعاب توغلت بينهم حتى وصلت

الباب فاجتزته وأنا أنظر خلفي وأحد الكلاب ينظر إليّ ، ولا أخله إلا الكلب إياه متحسرا على ضياعي من بين يديه . من بين أنيابه ومن براثنه ..

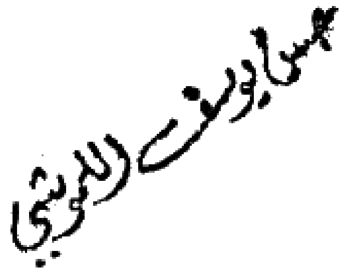

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الطريد

صادفت أبي عند المنعطف الذي يقود إلى بيت عمتي في مزرعة البرتقال .. كان في سيارته البيضاء مثل مارد تمنطق شراً وتحزم بالوعيد ، تراه في ما ترى من ذاك الزمان الرطب وهو يحمل تلك العقدة التي تنذر بالويل والثبور بين عينيه الحادتين .. فوليت فراراً وتواريت بين الحشائش خلف حوض السباحة القديم تظللني بأوراقها العريضة شجرة الموز الوحيدة هناك ، وقلبي يدق مثل عصفور وقع في شرك صياد شره . هل راني ؟ إن راني فسوف ينزل عليَ مثل الصواعق ليشنقني بحزامه ذاك الجلدي الأحمر العنيف . هل كان أحمر ؟ كنت أتخيله أحمر لما كان عليه من قسوة ! كأني سأعدم إذ أره ، وهو لا يبلى ولا يضيع ولا يُسرق ولم يأخذه الرب إلى جحيم ناره بعد ،مازال يعصف بي ومازالت رهين جبروته . لا تشكوا في ما قلت . ولا يذهب بكم بعيداً تفسير أحمق له ألف أذن بغيضة .. لا أعني شيء غير الحزام ، وهل اجرؤ على غير ذلك حتى وإن كان والدي المبجل يفكر اليوم في خطة مبتكرة ربما كانت خنقي بحزامه الناري ، والذي أضفت عليه السنون المزيد من الجبروت المزيد من القسوة ...

« آه لو أني حزته في ركن قصي عن عين أبي لكنت مزقته أرباً أرباً بأسناني المهشمة هذه ، لقد شوه لحمي وسمعتي ، ونغص عيشي ، ومرمر بكرامتي الأرض دون أن يغمض له جفن أو يردعه وازع .. »

« الحزام !؟ «

« كأني من ذوات القرون إذا رآني .. «

« الحزام !؟

« أو كأني لا أتألم مثل باقي المخلوقات.. يا له من طاغية ! «

« الحزام !؟ «

« الحزام الحزام .. هو الحزام أزهقت روحي . لا وازع يردعه . «

« أي وازع تنتظره من حزام ! أم أن الأمور اختلطت عليك ، حتى اعتقدت أنه بروح ويفهم ، كأنك تعني أباك ، وتستحي أن تبوح بما في جوفك .. «

« أبي ! كأني أعني أبي ، ولكن من يُفهم أبي أني لست حيوان يجتر . «

ها أنا ذا أنتظر الآن اللحظة التي سيطبق فيها عليَ عاجلاً أو أجلاً ؛ فلتكن مؤجلة تلك اللحظة التي ينتظرني الحزام الشره فيها عساه يضيع . عساه يموت . عساه يُحرق .. لكن الأحزمة لا تموت أنها تخلَد ، وهو سيبقى شاهداً على عذابي مثل تمثال خرافي بألف عين .. فكرت أن القى بنفسي في حوض السباحة الذي كان ممتلئ حتى حافته بالماء . كان بارداً . كان مغرياً . ربما كان ملاذاً فمن سيخطر بباله أن أكون فيه ، أسبح في أمان { الله} ، وأبي يتجول حولي بغضب يشتعل ، ويسال الحقول وحمام الطابية ، ولن يفكر أبداَ أبداَ في أن أكون هنا ..

" ماذا لو فكر ؟ "

حينها أكون في الماء وأغص فيه مثل سمكة جبانة فرت من إخطبوط متربص .. ولن يجرؤ أبي على القفز ورائي .

" ألا يعرف السباحة ؟ "

" يعرفها ! ويعرف أني لست بذاك السباح الماهر الذي يستطيع أن ينجو بنفسه . "

" إذن لا تجازف البتة . " هكذا قال عقلي الطائش في لحظة صفاء دهني .

أعجبني التحذير ، فعدلت عن الفكرة ، ليس خوفاً من الغرق ولكني لما نظرت إلى الطحالب الخضراء التي كنا نسميها شعر (الغولة) تملء البركة تشاءمت من منظرها كأني رأيتها وهي

تبحلق في شامتة ، ألا تذكر عندما قذفها ذاك الولد العفريت باتجاهي وانعقدت بين قدمَي بينما كنت أجرى وأستعد للقفز فوق عتبة الباب ، فوقعت على وجهي ، كان من حسن حظي يومها أن تهشمت سني ولم يتمزق وجهي فقد كنت أضحك لحسن حظ فمي .. نجوت يومها من شر مستطير ؛لأني كنت فرحان مثل فار نجي من مصيدة وقد سرق الجبنة فوقع في محضور أشر.

زحفت على بطني عبر شجرة الموز مختفياً بين أورقها المفلطحة حتى وصلت كوخ العمال فاختبأت وراءه لحظة أرقب الطريق سمعت أبي إثناءها يسأل العامل عني فيشير إليه هذا ناحية دار البئر فطرت باتجاه أشجار البرتقال في آخر المزرعة ، وفي إثناء هروبي جذبت ساقاً طويلة من سيقان القصب وجرجرتها ورائي ، وعندما وصلت

آخر المزرعة حيث أشجار الليمون الأصفر توسدت التراب .. هداء قلبي عن الدق ، ونبضي عن الهيجان ارتاحت أنفاسي المتسارعة فتطلعت إلى ساق القصب التي كانت في يدي وتذكرت السكين الصغيرة القابعة في جيب بنطلي الخلفي فأخرجتها وشرعت في صنع الآلة العجيبة التي أحبها ولا أعرف كيف أعزف عليها (المقرونة) ولكن لا بأس سوف أتعلم النفخ فيها وقد أستطيع في يوم من الأيام أن أبدع من خلالها الألحان الليبية الجميلة التي تذيب الحجر بما فيها من حنان وشجن وتجعلنا نحن الليبيون نذوب من الوله، وتجعل قلوبنا جميعاً كأنها تسيل حباً لهذا التراب الغالي لوطننا الحبيب

يا وطن حبك في قلبي مثل شهد العسل في حلاوته وابَن
مع الدم يجري دافق غزير كيف حب أمي وعطفها والحن
ما كيفك روي وما تعرف خديعة ومنَ
عالي في سماك والعلو يزيدك بهاء
يلي الربيع فيك زهو وزها
مواويل سحر وفن

سوف استطيع فكما تعلمت صنعها سوف أتعلم أن أعزف من خلالها مواويل الشجن . فقط لو أني أتخلص من هذا الحزام اللعين الذي سوَد حياتي ..

" تمام ها هي المقرونة جاهزة هيا حاول أن تبدع أيها الليبي الشره الذائب في حب التراب .." بدت أحاول أن أستميل رقتها فتمنحني

حنانها لربما بهذا استطع أن أبدع من خلالها لحن أغنية يسرى عبر كلماتها الفرح فأنسى معها حزني المقيم .

" من يوم رتني وحزام الشر فوق غصن الرقبة

تمنيت روحي حجر . تمنيت أثري أندثر

وما كنت في دنيا البشر

وآه آه يا حزام الشر

مرمرتني وبهدلتني وطيحت سعدي في الوطن

وآه يا القهر حياتي سواد ليله ما مضى

ظلامه مازال في منتشر "

....

وآه يا حزام الشر   لوث روحي بقيدك

عمري تعب ومل   وقهري أنا ما يفيدك

ليش العذاب والذل   يا دنيا الهوان ما أريدك

الصبر قالوا مر   غير فيه النجاة من سيدك

يمكن يجيك اليوم   وتفك حبسك حديدك

وترجعنا الأيام   وتشوف فرحة عيدك

يا هل ترى يكون الهناء ونشوفها مواعيدك

يبدو أن صوتي استطال حتى أخبرهم بمكاني فما راعني إلاً والخطوات مقبلة والحزام المميت يتراءى من بين أغصان البرتقال فنهضت على رجلي وانطلقت كالريح قفزت فوق سياج الاسلاك

واخترقت المزرعة المجاورة باتجاه الوادي آلتي في يدي وسكيني في جيبي والنغم في خاطري حتى وصلت الوادي صعدت ظهره وانحدرت إلى بطنه وأستقر بي المقام تحت شجرة خروع كبيرة عريضة أخفتني تحت أغصانها الوارفة ، واحتواني ظلها الرطب تمددت وتركت الآلة تستقر بجانبي ولم يعد يشغلني إلا أن أفكر في خطة تخلصني من ذاك الحزام صنيعة إبليس الرجيم .

وآه يا حزام الشر   لوث روحي بقيدك

يجيك يوم قريب   وكيف ما صدتني بنصيدك

" نفك خيوطك خيط وراء خيط وتبات عديم لا كنت ولا كان الضيم "

صحوت على يد تحاول أن تسحب آلتي من تحت ذراعي و وتقوم بخطفتها قبل أن أتمكن

من أخفاها عن أعين الفضوليين ، ولكن كانت هذه اليد لا خوف منها فلم تتكدر نفسي كثيراً فقد كنت اعرف أن آلتي في أمان عند (كروان الشلة) .. من غيره (محمد الهادي) الصديق الطيب بل أن نفسي المضطربة ارتاحت لحضوره المحبب إلى نفسي . أبتسم لي قائلاً :

ـ " ما الذي جعلك تنام هنا مثل المجانين ؟ "

فقلت دون تدبر :

ـ " الحزام ! "

نظر إليَ متسائلاً :

ـ " حزام ؟! "

ـ " الحمام الحمام . "

ـ " أي حمام ؟ "

ـ " حمامات بيضاء خرجت جذلا من القفص فجئت وراءها إلى هنا .. "

ـ " لكن القفص لم يعد به حمام لا أبيض ولا أسود . "

طار الحمام لما طار صاحبه ، افتقده فانتظره سنوات ولما طال غيابه رحل وترك القفص مشرعاً تلعب فيه القطط والفئران ، بعد أن كانت رفرفة الأجنحة البيضاء تملء الدنيا حبوراً ، والهديل الجميل الذي كان لا ينقطع يملاها نشوة ...

كان كلامه صحيحاً فقد أختفى الحمام منذ أمد بعيد بعد أن كان يملأ الأجواء نغم أليف ..

تلاشي بجماله وعذوبته ، ولكني كنت أحاول أن أخفي لعنة حياتي التي لا يعرفها أحد . هل حقاً لا يعرفها أحد ؟ يا ليت !

ـ " من قال لك ذلك ؟ عاد بعضه ! "

نظرت إليه منتظراً أن يكذبني لكنه كان غير مهتم ولا يعنيه من أمر الحمام كما يعنيني إذا كنت أحبه حقاً . هكذا قلت وأنا أحاول أن أغير دفة الحديث إلى مسرب آخر .. لكنه فجاءني بما لم أتوقع قائلاً في هدوء لا أحبه فيه :

ـ " قبل أن أنسى لقد التقيت أباك فوق الجسر ، وسألني عنك ،

وعندما أجبته بأني لا أعرف أخبرني أن أخبرك بأنه يبحث عنك . "

ـ " فقط ؟ "

ـ " فقط ! ثم ذهب .. كأنما كان يشك في أني أكذب "

ـ " إلى أين يا حبوب ؟ أعني في أي اتجاه ؟ "

ـ " ما بالك اليوم ؟ "

ـ قل لي { بربك } في أي اتجاه ذهب . "

ـ " آهه . أنت هارب إذن ، وتحاول أن تخدعني بسيرة الحمام ـ كان أبيض وأسود ثم هديل وأقفاص ، فاتك البرج الذي يستريح فوقه ، ومشكلتك التي تحاول أن تخفيها تتلخص في اختفائك عن أبيك أذن .. نسيت أن أخبرك أن وجهه كان يتفجر غضباً وصوته كالبركان حتى أنني خفت .. صدقني لقد خفت أن يصفعني .. الآن فهمت القصة . "

ـ " ماذا فهمت ؟ "

ـ " فهمت كل شيء أنت هارب مثل مجرم . ترى ماذا فعلت من مصائب ؟ "

ـ " أنا . لم أفعل شيئاً ، ولكن قل لي ما تخفيه عني وحياة (عبد الحليم) عندك . "

ـ " (عبد الحليم) مات . "

ـ " ورحمة (عبد الحليم) قل ما عندك . "

ـ " لا شيء غريب فقط ظل يشتمك كالعادة وشتمني معك . "

ـ " عادي . وفي أي اتجاه ذهب ؟ "

ـ " في اتجاه بيتكم . وأين تراه سيذهب ؟ وقالك حمام وهديل واقفاص حمام أبيض وأسود ! هه . لقد رأيت حزاماً عريضاً أسود مخيف لفت نظري .. كأني رأيته من قبل !؟ "

ـ " أي حزام ؟ "

ـ " أتظنني لا أعرف.. الجميع يعرفون قصتك مع حزام أبوك الأسود .. لقد كان يأتيك في

الأحلام يا فهيم ، وكنا نصحو على حلمك الدائم بحزامك المرعب الذي كان يطبق على رقبتك فتظل تصرخ وتتململ حتى تلقيه عنك وتتخلص من جبروته .. قبل أن تسقط من فوق السرير. "

لم أندهش كل هذا لا يُستغرب فقد عنيت وعنيت من هذا اللعين فوق ما لا يحتمله بشر . أنا لا أعني الأذى الجسدي ذاك يمضي ببعض الراحة والصبر ، و لكن ما يصيب النفس وما يخدش الكرامة ، والناس ترى وتتفرج .. شيء مهين لا ينساه البني أدم مهما طال به الزمن .. هذا ما أعنيه بالضبط وأعانيه .

ـ " هيا بنا نبحث عنهم . "

ـ " من !؟ "

ـ " الحمامات البيض . "

ـ " أي حمام ! لم يعد هناك حمام . "

ـ " ألم تقل ... "

ـ " لم أقل شيئاً . فلا تتلكأ ، أنت تعرف أني أكذب ، والحمام هاجر وراء صاحبه من زمان .."

قلت ذلك متبرماً ، وقلبي يشتعل من الخوف ، وبينما كان هو يضع قصبة (المقرونة) في فمه .. قمت من مكاني تحت شجرة الخروع الظليلة وسرت فسار ورائي يبلبل ، ثم أصبح يدندن كالعادة ، وبماذا يدندن (محمد الهادي) بغير (عبد الحليم) في أغنيته المفضلة عند صديقنا الطيب (لا تكذبي أني رأيتكما معاً) .. من هي هذه التي تكذب عليه ، ويظل هو يحذرها ليل نهار ؟ لا أحد يدري .

صعدنا إلى ضفة الوادي وانحدرنا إلى الطريق ثم اعتلينا الجسر كان ساكناً متوارياً وراء صمته

مثل قعر بئر فارغة في فلاة .. حتى مبدعنا استولى عليه خشوع غريب فصمت تماماً وسكن

هو اغنياته المتفجرة من عين المصباح .

تمددت أنا على حائط الجسر واختفى هو وراء الحائط وفجأة على حين غرة لم يتوقعها حتى حمام البرج الذي يرقب الناحية كلها أظن استولت عليه الدهشة أما أنا فقد أستولى على الرعب فوق ما أستولى عليَ من دهشة وشك .. الدهشة من هول ما جرى بسرعة لا تصدق لا تنبئ إلا

على حيلة مدبرة تدبيراً ومحبوكة حباكاً .. أما الشك فقد أشار بالاتهام إلى صديقي عاشق العندليب .. كان أبي فوق رأسي مثل طغيان دكني دكاً ، وحزامه المريع في يده :

آه يا حزام الشر   ما درت في خير

في اللحم حز حديدك   مازال داير سير

ما ينتسى من العقل   وكيف ينتسى التحقير

في الذاكرة حكايات   من هول عليَ فات

أخبار وتصوير

لف والدي العطوف الحزم حول لحم الرقبة وشدني إليه كأني كلب مسعور يراد التخلص منه ثم قذفني إلى الكرسي الأمامي في السيارة حتى يسهل عليه أمساك طرف الحزام بيد بينما يقود باليد الأخرى مخافة أن أطير أو ربما خطر له أني قد أقفز من سيارته البيضاء طيبة الذكر ، وهى

تجري وتجري كأنها متواطئة معه لعذابي .. كان أبي يعرف أني لم أعد أحتمل ، وأنه فاض بي العذاب وطفح الكيل ، وأني على استعداد للموت كي أتخلص منه ومن حزامه اللعين .. وانطلقت

السيارة تجري ، ثم يحبسني في بيته هناك حيث أذل ، ويمسح بكرامتي البلاط أما ما يحدث لي في الشارع قبل أن يسترني طوب منزلنا الظريف فهو حكاية أخرى مضحكة لمن يرى طبعاً ؛ خروف في جلد صبى يقاد بحزام من رقبته الطرية الخالية من الخوف ..

" لم نر السكين يا عمي الحاج .. بحق (الإله) سن شفرتك قبل أن تشرع في ذبح الصبي ، وتوجه به للقبلة . " كانت هذه تعليقات أحد المارة في الشارع ، بينما قال آخر ؛ " زيدك عز يا حاج وتفرح بلحمه قديد . "

أما أنا فقد كنت أعرف أن أبي لن يجرؤ على ذبحي لأنه يحبني ، ولكن هذا طبعه ثم هناك أمي وجدتي والقانون والعرف وطبائع الناس والدين أولاً وليس وآخراً وقبل ذلك كله .

كان هذا اليوم مميزاً فقد كان الشارع يكاد أن يكن فارغاً من المارة ففي مثل هذا الوقت من النهار وتحديداً ما قبل صلاة العصر يكون الناس غارقين في بيوتهم يقيَلون أو يحتسون الشاي بعد غذاء دسم تصبح معه الأجساد في خمول والعقول في بلادة فلا من (يهب ولا من يدب) ،

ولكن كان حظي عاثراً مثلما هو دائماً فلم تكاد فرحتي تكتمل بخلو الشارع أو يكاد حتى فجاني بما لم يكن في الحسبان كأنها الأرض انشقت عنها وخرجت تتمشى أمامي عيني والحـزام يلمع مبتهجاً بموضعه المريح حول لحم رقبتي الظريفة الناعمة المرتعشة تحت سطوته.. انتهت الظرافة والنعومة وبقت السطوة مهيمنة تزمجر .. كأني تخيلت ابتسامة البنت .

" ما الذي أخرج أهلها في مثل هذه الساعة ؟ " كأنما لم يكفيني العذاب وانتهاك الكرامة حتى تأتيني الفضيحة مجلجلة فتدمر ما تبقى مني .. ما الذي جاء بها وفي مثل هذا الوقت الذي يخلد فيه البشر إلى السكون؟ ليتني أذوق الموت في هذا النهار حتى لا يتلذذ الناس بفضيحتي ..

مر فيلم آخر النهار طويلاً طويلاً طويل وأبي يجرجرني من حزامه المشدود إلى لحم الرقبة كأني أساق إلى الذبح ، وكم رقص قلبي

بعد أن أجتاز بي هذه المسافة المرعبة التي طالت حتى خلت أنها لن تنتهي . دفع الباب بقدمه وشدني إلى الداخل ثم قذف بي إلى وسط (الحوش) بعد أن فك الحزام ..

" هل نسيت ؟ لقد قذف بنا وسط جنان البيت على البلاط العاري ، ثم أنه لم يفك الحزام عن الرقبة تركه يتدلى امعاننا في التحقير .. "

" آه . نعم واستخدام الخرطوم على اللحم ، خرطوم المياه الأصفر .. "

بعد أن أغلق عليَ باب الجنان الخشبي الأخضر .. أتذكر ! كان يومنا ملوناً من الأصفر الفاقع إلى الأخضر الدكان إلى الأحمر الشره إلى الأسود الشرس ، والحكاية من أغصان شجرة البرتقال التي خبأتني إلى خرطوم المياه الذي جلدني ..أنهال عليَ أبي بغضبه وخرطومه الذي كان يحتفظ به لي لمثل هذه اللمات.. عفواً كأني أخطئ التعبير في كل مرة فهي كمن قال حفلات .. صرت كأني حمار حرن في بطن الوادي فلم يعد يتقدم ولم يعد يتأخر وصار يتمنى لو أن سيلاً يأتي مزمجراً فيجرفه ويرتاح من حياته البائسة أما أنا فلم يأتني السيل أتاني النوم ..... جاءني بالأحلام ؛ رأيت نفسي طائراً مكسور الجناح أتخبط بليل وحولي السكون والأخيلة تبدو بيضاء تارةً وحمراء أخرى ، وتزَرق وتصَفر وتذوب ثم تظهر لتحاصرني وتضيق تضيق ، وعندما تصل جسدي المنهك المبلل بالعرق المالح تصعد من قدمي إليَ حيث تختلج مهجتي بين قلبي المرتعش وعينا رأسي المغرورقان بماء وبدم وقنوط. تركني ملقى فوق البلاط مثل

شرنقة تمزقت ثم رفسها حذاء غريب فتفتت وسفتها الريح ....

.. هذه النهاية .. ولولا إني (بني أدم) لا تقتله رفسة حذاء .

لا تقتله رفسة حذاء ، ولا الجلَد بحزام جلدي أسود . لكن القهر يقتل أقوى الرجال .. والصيبان .

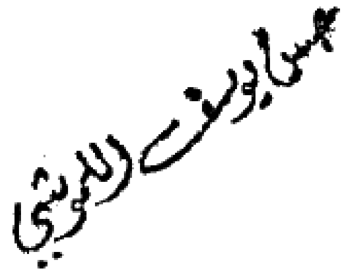

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

ابن بطوطة

تعثر اليوم ونكست رايات الانفراج حسبت أنها سترفرف في فضاء هذا النهار الذي كان صافياً لا تعكره السحب القاتمة على غير العادة في مثل هذا الفصل المتقلب من السنة . تعثر وتعكر وكان ما كان ، عندما رأيته مقبلاً نحوي مثل غمامة سوداء كالحة عرفت أن هذا النهار انتهي بي إلى الغم وعددته من أيام حزني .

فلم يكن هذا العجوز الأشمط ليحمل لي إلاّ نكدا عنيدا لا أحسبه ينتهي إلى خير.. هذا الخرف المعفر الساقين ، كان كثيراً ما يغريني شيطاني أن ألقيه من فوق الجسر لولا أني كنت أرثي لحال وادينا أن تشوهه جثة لمثل هذا المعتوه . كان أشبه بدمية بشعة ملئت صديداً وقد عُفرت بالعفن وتم حشوها بالكراهية لهذا كنت أتحاشاه مخافة أن يُطلق عليَ خفافيشه وأطلق عليه كفاحي وثورة سنين مضنية تغلي لها مراجلي منذ أمد ليس بالقصير ولعله أطول مما ينبغي لمثلي مازال تحت لسانه رحيق حليب أمه ..

كنت كعادتي أفترش الجدار ، وقف عند رأسي فجأة معتوه بلحية صفراء مثل تلك التي يتباهى بها ذكر المعز، أحمق إذ أطلق في وجهي جملته المحنطة التي لا تبرح تؤجج قلبي من سنين طويلة :

ـ « أنت منين يا غريب ؟ «

التفت ثم نظرت ثم شتمته في سري ألف مرة ، وابتعدت بنظرتي

إلى أبعد مدى فأنساه وارتاح من بشاعة .. من بشاعة لا تغتفر ، هذا التعس لم يتوان حتى قذفني بها مرة أخرى مملة مستفزة ومتسلطة .. كأنما أغريته باستفزازي إذ صبرت :

- « منين أنت يا غريب ؟ «

ما الذي جرى حتى يقتحمني مثل هذا الأحمق ، لعلي أذنبت اليوم وأسرفت في الباطل ..

قلت في نفسي التي شهقت من مفاجأة النكد التي صعقني من أول النهار .. فكرت ، من أين خرج علينا مبعوث الشيطان هذا ؟! أنا والوادي الرائق والجسر المطمئن وشجرة الخروع التي تظللني وأنا في مرقدي فوق الجدار الحميم .. ها هو يبحلق مثل ثعلب يتلمظ ، فأشارت إلى صدري قائلاً في اشمئزاز ، وأنا أحاول أن أرسم فوق وجهي دون رغبة مني في ذلك ابتسامة صفراء وقحة ارتسمت على فمي ونظرة تبحلق حمراء من عيني عبأتها بكره لا تحتمله الحيطان.. لم أكن أعرف كيف ابتسم بوقاحة قبل الآن ولا أن أنظر بكره صاعق مثل هذا .. لا تظنوا إني أعرف ، رغم كوني طيب وبريء وأحب النهار المشمس وأكره الصقيع وأمثال هذا العجوز الكريه .. فأني أثور مثل باقي الخلائق . فلم يسعني وهذا الشريد فوق رأسي إلا أن أجيب ، ولكن بماذا أجيب ؟ فقلت بغير ما اهتمام كبير بشخصه ولونه ذي البشرة المحنطة :

- " من ؟! أنا ! أنا . أنا ! ، أمتأكد بأنك لا تعرفني . "

فكشر عن أنياب سوداء واختلجت عيناه الصغيرتين وصار يتمطى

كأنه أنتصر في معركة شد الحبل ، فتح شدقيه وبدأ يهرش رأسه الأصلع الذي يختفي خلف طاقية حال لونها مما كان قد أصابها من توالي الفصول عليها وهي تقبع فوق صلعته .

- " ما أرى غيرك في ها المكان .. "

- " هناك غيري يا عجوز ، ألاّ تراه حقاً ؟ لا شك بأنك تمزح .. هذا (شادي) . "

تراجع العجوز وارتجف كيانه كله ، وكأنما ركبتاه سقطتا تحت قدميه ، وقلبه .. قلبه ! وهل لهذا قلب ؟ فقلت ، وأنا أكبت رغبة جارفة لمحقه :

- " تعال إلى هنا يا (شادي) ،هذا (شادي) يريد أن يسلم عليك ، انظر يا (شادي) ، هذا العم .. ، ألسنا أصدقاء يا عم ؟ ماذا قلت لي أسمك آخر مرة ؟ . "

- " بوزيد ، عمك بوزيد الأرياح . "

- " الأرياح ! الأربع !؟ "

هز رأسه مثل كلب مسعور ولعابه يسيل في خيط طويل يثير القرف .

- « لا عليك . » قلت ، ونظراتي تخزق رأسه الأصلع . »

- « هذا اسمي . » قال بتبجح ، وهو يهز أُذنيه وذيله ، ويتلفت وراءه يبحث عن (شادي)، ولما لم يراه رفع حاجبيه ، ونظر إليَ نظرة ذئب دموي يتحفز لينقض ..

- « صاحبك ما بان ، كأنه مشي .. « قال ثانية ، وهو يهرش بطنه وجنبيه مثل بخيل أحمق ضاعت دراهمه .

فنظرت باتجاه أعمدت الحديد التي تسيَج الجسر وتبسمت ورفعت يدي ملوحاً بها لـ (شادي) فيما كنت أقول للعجوز دون أنظر إليه :

- « أنظر هناك . (شادي) يبتسم لنا، ويلوح بيديه الاثنتين كأنه يود أن ينصرف عنا ، اذهب إليه قبل أن يمضي .. «

- « أنا ! لا ، لا حتى مازلت ما شفته .. وحتى أنت مازلت ما عرفتك «

- « ما تقولها !؟ أنا أيها العجوز رائد فضاء أو كأني رائد فضاء أو كأني مثلما قلت . «

- « كيف ؟ ما فهمت ! «

76

- " كيف ما سمعت !؟ هذه حاجة جديدة صارت في ها البلاد . "

- " وهذا ؟ "

- " آه رأيته أذن .. جميل منك أن تراه .. هذا من دواعي المسرة أن أجد أحداً يمكنه أن يرى صديقي (شادي) .. كثير من الناس لا تستطيع أن تراه . أنت محظوظ مثل خنزير لم يقع عليه الدور لهذه اليوم ليذهب بلحمه وشحمه إلى المسلخ .. هو أيضاً رائد فضاء آخر

.. رائد فضاء حقيقي . "

هز رأسه وذيله هذه المرة مثل كلب فرح بعظمة فأقعى أمامها يتلمظ .

- " هل أصابك صمم أحرق أذنيك ؟ هذا أسمي يا عجوز . "

- " لا . أنا أسمع مثل الخفاش ، لكن ما سمعت كيف هذا من قبل ... "

- " ولن تسمع يا عجوز السوء " لم أقلها في نفسي ولم أنبس بها ، خرجت في هيئة صرخة من فمي تلعلع لم تعد بقادرة على أن تصبر ..

- " ليش يا ولد ولدي . أنا كيف عمك! "

- " أنت كيف إبليس الرجيم " خرجت مني خافتة مع نظرة متوعدة ، فلم يسمعها الخفاش ، فهز رأسه مستفهماً .

- " كيف لا ، أنت كيف العم .. ؟

- " صحيت . أنا ماشي عندي (بيودجا) بنسقي شراك المعدنوس والفلفل الأخضر .

ذهب عني فبدأ المطر يتساقط حبات رقيقة بللت وجهي باردة ومنعشة رغم الصقيع ، لم يأتِ أحد من العصابة ؛ لا من سكان المزارع ولا من سكان القرية في ما وراء الطريق الرئيس الذي يقود إلى وسط البلد عبر رحلة تستغرق خمس ساعات كاملة إذا ما كنت في حافلة ركاب ، وساعتين إذا ما كنت على قدميك ، أما إذا ما كنت تركب بهيمة فذلك يتوقف على نوعها .. الحمار قد يستغرق ساعتين .. ساعتين ونصف ، قد يصل بك قبل ذلك إذا ما كان الحمار في مقتبل

العمر ، ولكن في هذه الحالة تكون مستمتعاً بخصلتين ـ الأولى ؛ أنك تركب فوق ظهر حمار يمشي بك على مهل ويهز أُذنيه الطويلتين وقد يشنف أُذنيك بنهيقه ، والثاني ؛ أنك سوف تريح قدميك القصيرتين، وتستطيع أن تهزهما في حبور وأنت تبتسم للمتفرجين ، و تتصور في نفسك ابن بطوطة في رحلته العجيبة ..

لم يظهر (الوزة) فوق سطح الكوكب مازال وسط عتمة الحيطان ربما هو مشغول بأوتار (كمانه) وبين يديه كم علبة دخان من بعض الأصقاع ، أعرفه يحب التنويع ولا يحبسه شيئاً في

بيتهم سوى السجائر والأوتار ، في المدة الأخيرة ترك آلة الكمان بأوتارها الأربعة ، وأكتفى بعلب السجائر يلتهمها في نهم قد يعجل به إلى الاندثار قبل الأوان . لم أرى العندليب أيضاً

ترى ماذا يشغله ؟ أكبر ظني أنه في (ترهونة) الآن ، يختفي خلف ربوة ويترصد (صيد الليل)

، آه . لكننا مازلنا في منتصف النهار ولم يحين موعد الصيد بعد ، لعله الآن فوق رأس جبل

تحت شجرة (بطوم) وهو يقذف الحجارة نحو أرنب بري ظهر فجأة ينط بينما هو يغني (صافيني مرة وجافيني مرة ولا ...) ، ولذلك فهو لا يشغله في العادة شيء عنا غير أغاني (عبد الحليم) ورحلة الصيد الليلية عبر شعاب الجبال .

اختفى كل أفراد العصابة ، كأن الأرض انشقت ... لا . لا .عرفت ! أحدهم (خميرة نوم) لا بد أنه في جنان (الحوش) يغط غطيط

القطط ، ذلك مما لا ريب فيه ، والأخر في (باب الحرية) يبيع ويشري، ويتعارك مع لفرنسيس لأنهم يِسمون الأطفال (كرسون) ، اعتقد المسكين بأنهم ينعتونه بالخادم . فناصبهم العداء - عجبي ! وهل يلام من لا يعرف ؟؟

فتحي ، أظنني أعرف مكانه ، فبعد أن أشتري دراجته الجديدة ، ظل يفصَل في الشوارع ويخيط في (الزنقَ) يتباهى أمام أطفال القرية بدرجته الحمراء التي لا يملك أحد مثلها في ثلث قرية (البدري) ، أما الثلث الآخر فلا أعرف ، أما في ما يخص الثلث الأخيرة فهم أما أغنياء أو من أعوان الحاكم ، وهؤلاء لا شأن لنا بهم .

نزلت عن حائطي وخطوت باتجاه السياج ، ثم قفزت إلى الناحية الأخرى حيث الحائط الإسمنتي المائل وانزلقت عبره إلى الوادي ، وانطلقت إلى ملعبنا الرملي ، كنت أعرف أن العجوز يتبعني بعينيه ، وصلت منتصف الملعب والتفتُ إليه كان قد اختفى وأراحنا.. كانت فرصتي لاحتفى بوحدتي فألقيت بنفسي في الرملة وتمرغت طويلاً مثل حصان يستحم ويحث التراب فوق جلده ، ونهضت مثل جدي الغزال وسبحت عبر الرمال فوق قدمين ماهرتين في الركض قطعت المسافة بين الجسرين جسرنا الثمين والقنطرة الحديدية الخاصة بالعسكر ، صعدت عبر حديدها البارد وجلست أنظر إلى الخلاء خلفي حيث الغابة ، وإلى ثكنة الجند أمامي حيث رأيتهم يهرولون في ملابس رياضية زرقاء وراء حائط سياجها الذي تعلوه الأسلاك الشائكة ، فلمحني بعضهم من بعيد ، وجوه قاسية لا تبتسم وعيون تنذر بالوعيد ، ففضلت الانسحاب كي لا أثير هيجاهم ، نزلت عن

القنطرة مثل قرد لعوب فيما زادت العيون التي تراقبني وأنا أتأرجح فوق حديد جسرهم الرهيب ، اعتليت ربوة الوادي ثم انحدرت إلى طريق الإسفلت انعطفت يساراً حيث يمضي الطريق إلى وسط المدينة أما في الاتجاه الأيمن فيسير الطريق حثيثاً إلى (قصر بن غشير) عبر (خلة الفرجان) ومزارعها القليلة وغاباتها المترامية ، وما بين الباب والقصر لا ينعطف الطريق بل ينحني انحناءات خفيفة.. طريق فردية باتجاهين تمضي قدماً في يسر وعلى مهل في رفقة أشجار السرو والصنوبر المنتشرة في كل مكان تحاذي الطريق تحرسها تكاد أن تحضنها ، حنونة جميلة وبارعة وتبعث في النفس الانشراح .. قبل أن يقطعها الأفاقوين .. ومن جزيرة دوران الباب إلى جزيرة دوران القصر ليس هناك إلا إشارتان ضوئيتان واحدة بقرب (سينما العثمانية) والأخرى عند جزيرة دوران القصر بعد أكبر انحناءة للطريق الفردي المسفلت ذو الاتجاهين ، والذي يسيجه الصنوبر من الناحيتين ، كان هناك على ما أذكر خمس محطات

وقود ، واحدة عند جزيرة الدوران حيث (سينما الجمهورية) الجديدة والأخرى عند تقاطع الشارع الرئيس بطريق (باب عكارة - رأس حسن) والأخيرة بـ (قصر بن غشير) قبل الإشارة الضوئية بمرحلة ، وأما الوسطيتان فمتجاورتان عند حي دمشق (الزابطية) ، وسبع محطات للحافلة المتهالكة التي تقف عند ثكنة الجنود لتعود أدراجها باتجاه وسط البلد ..

وراء الثكنة تم بناء مستشفى ، أطلقوا عليه أسم (صلاح الدين) ، وبعد فترة اشتهرت تلك المنطقة بهذا الاسم الجديد - ثم قطعوا

الأشجار وجرفوا الغابات وبنوا الحيطان والأسوار والسجون ونصبوا (الأرقيل) فصار دخانها يلعلع وأصبح ليلها ملاذ للأوغاد ونهارها للسماسرة والشطار جاءوها قطعان قطعان ياولدي من كل حدبِ وصوب . قلت انعطفت ناحية اليسار وسرت في الناحية الأخرى لسور الثكنة ، لم أجرؤ على الاقتراب من حائطهم ، تظللني الأشجار الباسقة رغم أن الشمس فاترة التوهج فنحن في أواخر الخريف ، وعند اقترابي من جسرنا عرجت على دكان صغير يبيع المواد الغذائية والسجائر وبعض الخردوات وكثير من لوازم السباكة .. يقع في الجهة الأخرى من الطريق ، ابتعت علبة دخان (سفيروس) قذفت احدها بين شفتي ، وأشعلتها في دكان الرجل الذي كانِ عبوساً ذا وجه شديد القاتمة ، ولا تُري له سن ، كان من صنف الجلاميد . ثم رجعت ينعشني انتشاء غامر بعد أن قطعت الطريق إلى واحتي فوق الجسر حيث حائطي وخروعتي وميدان الكرة المثير ، هناك تمددت مستمتعاً بسيجارتي حتى أخذتني سِنة من النوم .. صحوت على لسع النار بين أصابعي فوجدت جزء من ياقة قميصي قد احترقت ، فقذفت بعقب السيجارة ، أشعلت أخرى امتصصت منها ما شاء لي حظي ثم قذفت بها باتجاه الهوة تحت حائطي الحبيب ونمت ، غفوت في ظل

السكون والحفيف والزقزقة .. كنت أصبو أن يتلاشى هذا الكدر الذي يؤرق الصحو الجميل .. قد شوه المكان ولكن السكينة أقبلت تستحم بجوارنا فعم الصفاء وبدأ يترقرق عبر أنفاس العبير ونسائم الطل البديعة .. ولكن هيهات ؛ آفة السكينة البُلهاء كما آفة الدفء الزمهرير ..

" آهه ! أي كارثة قذفت بك إلينا ، ووضعت هذه السحنة النتنة في طريقنا "

- " كيف حالك اليوم مش كيف أمس ؟ "

- " كيف أمس . حال الكرموس في الغرارة "

- " منين أنت ؟ خبرَني . "

- " من كوكب يسمونه المشتري لا ظل له ولا ماء . "

- " وين ها البقعة في ها لوطن ؟ "

- " أترى ذاك الجبل .. "

- " الأبيض ؟ "

- " ذاك أحمر .. ما تراه السحاب . "

- " في (غريان) . "

- " في أعلى رأس الجبل .. بالضبط .. كيف عرفت ؟ أنت داهية أغبر .. "

- " أنا عندي فكر كيف الجمل .. نعجبك ..لكن قول لي شن ادير هنى فوق كمرة الوادي ؟ "

- " أنتظر الحافلة .. "ا

- " حافلة ! هه .(شن غنتها) ؟!!! "

- " سيارة ركاب (الكوريرا) بالإيطالية المهشمة أنت تعرفها أكثر مني . "

- " أنت غالط يا ولد ولدي .. في ها الجهة ما هناك (كوريرا) ولا

(كركار روحيته) . "

ـ " غالط ؟! في أي شيء يا عجوز .. في الحافلة وإلا في القطار . "

ـ " الكوريرا ! تجئ مئة في المئة . واللي يكركر في (رويحته) رفعوه الطليان معهم . "

نظرت إليه كأني أنظر إلـى تمثال حجري غابر من أي أيام (شيشنق) الليبي .

ـ " (الكورير) ما تجيء (هنايا) . المحطة في الكوبري الآخر .

كأنه يريد التخلص مني ، هو لا يريد أن يفهم بأن هذه الصخرة صارت ملكي وملاذي ومن يخاصمني فيها أكل رأسه ، كدت أن أتهور ، ولكن صبري لم ينفذ ، وهذا من حسن الحظ ، له ولي وللجسر وبطن الوادي الذي لم تلوثه الجثث بعد ، فقلت في هدوء عجيب :

ـ " ألم تعرف يا عجوز ؟ صارت تأتي بعد أن زفتوا الطريق . "

ـ " أنت تكذب . "

قذفني بها فأدمتني ، ولكن شيئاً في داخلي قال تمهَل ما هو إلا عجوز يحصي في شحيح أيامه .. فحلفت له بما يعتقد قائلاً في جد :

ـ " وحق سيدي (بو مربوط) . "

ـ " من [بو مربوط] هذا ؟ . "

ـ " هذا مرابط أيده طايلة يسكن عندنا فوق رأس الجبل ، هناك في الاعال جنب السحاب . "

ـ " أيدي على رأسي ، راجيها يا ولدي لين (تجيك) . "

- " مرات نتفكر في الغيوم .. ومرات نعد في النجوم بم، ومرات يخطر لي في البحر نعوم .. وأنت ما الذي تفعله في ها لبر . "

- " (تاريتك) شاعر يا (غرياني) . كيف ضيعت طريقك ؟! "

- " هذا (بشار) . دائماً ما ينسي المكان الذي يجب أن نذهب إليه . "

- " بشار من ثاني ؟ "

لم أعره اهتمامي بينما توجهت إلى الجهة الأخرى مخاطباً (بشار) .

- " أما قلت لك يا (بشار) أننا أخطانا المكان . "

ونهضت كأني أصغي لما يقول (بشار)، حتى أني وضعت يدي خلف أذني كي أتسمع ما يقول صاحبي الخيالي .

- " نعم . كما قلت لك سوف تأتي من هنا هذه المرة . "

ثم توجهت بحديثي للعجوز قائلاً :

- " أسمعت ما قال ! أذهب ونم يا عجوز ، فَيَل تربح راحتك . "

- " ما سمعت ولا رأيت ، أنت تكذب . "

ثاني . ثاني يا عجوز النحس .. مازال الشيء الذي يكمن هنا في داخلي ينصحني بالتمهل ، صار يهمس لي من جديد ، أصبر يكاد أن يسقط ميتاً ..

- " نعم . هذا الكائن .. ها هو يقف وراءك . "

- " وين ؟ ما ورائي شيء . "

ـ " ألا تراه ها هو ينتقل إلى هناك ، ويقفز إلى مزرعتكم ، ألحق به قبل أن يهشم جداول النعناع ويرفس المعدنوس .. "

أنطلق العجوز يجري مثل مجنون أشعث الشعر حافي القدمين متهدل الشفة السفلى ، وهو ينعق مثل غراب أسحم بليد :

ـ " رد بالك الزرع يا ولد .. يا ولد الكلب .. يا (بشار) هوه ! النعناع يا (سقوطرى) ... "

كلب جن يأخذك ويريحنا منك في القريب القريب من نهار اليوم قبل أن تغيب شمسه ، ويأتي ليله يمتطي عصاه ويلقي علينا السواد . ثم يظهر الجن ويبدأ في حبك المؤامرات لربما يخطر له أن ينتشله من براثن الهلاك . أفا . هم و انزاح إلى غير رجعه أنشاء { الله} .. يا (شادي) ألحق صاحبك .. وشدوا ها البلاء عني .. كتفوه . أضربوه أردموه . المهم خلصوني منه ..

واعتليت جداري بعد ها القضقضة .. حاولت أن أغفو لكني سمعت أصوات تتجادل يأتي بها

الهواء من ناحية المزارع ، وأصوات يأتي بها الغبار من ناحية القرية ذات الشوارع المتربة

والحيطان الجيرية ، لم أعرها سمعي لكنها بدأت تقترب فعرفت فيها أصوات أفراد شلتنا المغاوير فانتفضت وجريت باتجاه السياج الذي قفزته إلى الناحية الأخرى حيث الحائط المائل ، وانحدرت بتهور إلى بطن الوادي كدت أسقطت فوق سطحه الإسمنتي الخشن ، ولو قدر ووقعت كنت تهشمت ولكن {الله} سلم ، وصلت الميدان

الرملي ، تدحرجت قليلاً ثم رفعت يدي للسماء

التي بدأت تمطر من جديد ، فسقطت الكرة بين ذراعيَ بينما وصل الرفاق يهرولون بعضهم من

ضفة الودي بعضهم من الحائط المائل بعضهم كأنما قذفت بهم السماء ..

لحظات واشتد هطول المطر ، في هذا الجو الجميل يحلو لعب الكرة حيث بدأت المباراة تحت أنظار متفرج واحد ، يحلو له أن يصمت . يحلو له أن يفكر . ويحلو له حبك المؤامرات ..

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

السيل

عند الصباح خرجت ، هذه حقيقة لا مناص من الإقرار بها ، وفي الصباح الباكر . أظن قبل أن يصحو الكلب أبن الكلب ويقطع عليَ الطريق .. قال لي أحدهم مرة وأظنه ذلك المجرم ؛ أن الكلاب تسهر بالليل مثل الذئاب، وتنام حتى وقت متأخر من الصباح . هذا في ما يخص الكلاب الشاردة . أما التي يربيها الناس فتلك شأنها شأن من يملكونها .. عليَ إذن وفي هذه الحالة أن أغبط نفسي وقد تمكنت من أن أفلت من ذاك الكلب اللعين الذي ظل يلاحقني كأني أنا الذي فتكت بجده . ذاك الكلب الأسود الضخم الذي كان وجاره قريبا من ملعبنا الأثير، ولم يكن هناك من مفر إلا أن نفتك به ، بعدما أبا الرحيل وأصر إصرار كلب أحمق أن يتحدانا في عقر دارنا كأنما رأى فيه وطنه ومسقط رأس أبيه ..

لكن البقاء للأقوى .. أليس كذلك؟ وكنا نحن أقوى من ذاك الكلب الأسود الذي كان يتميز بقوة عجيبة وحمق لا نظير له .. على أي حال لم أكن أنا القاتل ، ضربه أحدهم بحجر ، ولا أعتقد أنه كان يقصد اغتياله ، ولكن الضربة جاءته في أم رأسه فمات المسكين على الفور .

من بيت العمة خرجت وكانت وجهتي في اتجاه مدرستي (الطليعة) الزرقاء الساكنة بحذاء الطريق العام بالهضبة التي يسمونها الخضراء رغم أني لم أعي في هذا الجزء منها إلا الرمال ..لابد أنها مفتوحة

الآن على مصارعيها لاستقبال التلاميذ الذي جاءوا على مضض متثاقلين وكل منهم يتمني أن يجدها قاعاً صفصفا بعد أن دمرتها صاعقة اخترقت الفضاء السماوي ولم تجد إلا بناءنا الأزرق فنسفته ؛ تلك أمنية لم تتحقق أبداً رغم دعوات الصغار من أول الليل حتى نهار اليوم التالي ومن انبلج اليوم التالي حتى قدوم اليوم الذي يليه ..

عندما وصلت حائطي عند الجسر القى التحية كعادته ، ذاك صاحبي ولي معه ذكريات حميمة وطلب مني أن أجلس قليلاً . أخبرته أني قد أتأخر عن طابور الصباح ، وبالتالي سوف أتعرض للضرب من أحد المدرسين الأشاوس . ضحك حتى كاد أن يستلقى على جنبه الأيمن فيغلق الطريق وتكون طامة لأهل المزارع ، لكنه صمد واقفاً وهذا شيء يحسب له في مثل هذا الوقت من الصباح والكل يترنح ، قال وهو يهز جنبه المغروس في الحديد :

- « عليَ أنا يا بارد الوجنتين . »

- « أنت هو البارد ظهرك كالثلج . » أبتسم وقال :

- « آه .هذا صحيح ..الشتاء كما تعرف . جسمي بارد وأحشائي مثله أيضاً قد جلَدها الصقيع .. صدقت في ما قلت. »

- « إذن ! »

- " دعنا من ذلك وأجلس ."

- " لا أستطيع ."

- " أيضاً . أتحسبني لا أعرف يا ولد . "

- " تعرف ! تعرف ماذا ؟ أقلقتني .. "

- " أعرف أنهم يسمونك مواصلات في المدرسة لكثرة ما اعتذرت بها عن تأخير اليومي الذي . اعتادت عليه حتى مقاعد الفصول وسارية العلم ومدرس التنمية الذي يكره اسمك والذي لم يستطع جلدك بعصاه رغم أنك أكثر من يستحق ذلك ... "

- " من قال لك ذلك ؟ من أين تعرف كل هذا . "

- " أنت صاحبي . وأنا لا يفوتني أن أعرف أصحابي بشكل جيد. ألست تسميني حائطي !؟ "

ابتسمت وقلت وأنا أغمز بعيني بينما كان ينظر إلى من طرف خفي :

- " ولكن تصادف اليوم وكنت بجانب المدرسة وأريد أن أصل إليها دون تأخير ولو لمرة واحدة ، في غير أيام الامتحانات . "

- " ألم يلاحظوا ذلك ؟ "

- " لاحظ أحدهم ، وسألني السؤال نفسه الذي خطر على بالك ؛ كان يعتقد في نفسه الذكاء مثلك الآن ."

- " وكيف تملصت من سؤاله ؟ "

- " ولم أتملص . بل أجابته الإجابة الملائمة التي أخرسته . "

- " أعرفها ! لقد أجبته بأنك تنام قريباً من المدرسة عند عمتك ، يا لهذه العمة كما أنقذتك ."

- " وكيف لا تفعل ؛ أليست عمتي . "

- " فقط لو أنها تدري ! "

ـ " دعني منك أنك تعرقل خطة أول يوم ارغب أن أصل فيه إلى المدرسة قبل الطابور الصباحي مثل باقي التلاميذ . "

ـ " الوقت مازال باكراً على الطابور ، وبضع دقائق لن تضرك في شيء . "

ـ " حسناً أنك متحمس اليوم رغم البرد .. وبضع دقائق لن تقتلني على كل حال . "

ـ " أنا ! وماذا عنك ؟ بماذا تسمي ما أنت فيه ؟ "

ضحكت وارتقيت ظهره وجلست ، طاب الحديث فاتكأت على مرفقي ثم استلقيت وبعد برهة نمت ،ولم اصحوا إلا على صوت عربة مرت بعد أن أطلقت بوقها يزعق فأيقظت الكائنات ونثرت في الأجواء هولا . ربما أرد تحيتي ـ ربما أرد استفزازي ـ ربما لم يرني ذاك الذي زعق ـ ربما هو يهوى الضجيج . نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى العاشرة ، الآن توسدت حقيبتي ونمت نوماً ماتعاً حلمت فيه أني : أمير قطرين وملك بحرين في يدي صولجان وحولي مئات القيان وأنني قائم بالأمر من أقصى التراب الحار إلى أقصاه المزهو بجليده فأنا أنا سلطان زماني . هه ، و يا حزاركم يا مزاركم شن البارح تعشى ...

من جديد كما أريد .. وتراءى لي الطيف مثلما يترقرق في عيني يختفي ويظهر .. يبتسم ويتجهم .. يبتعد ويقترب .. يكبر ويصغر .. ينصح ويتوعد .. يقبل ويدبر .. ويتشح مرة بالبياض، ومرة يصير شفافاً كالماء مبهماً كالغروب تتقد وراءه النار .. حقيقة مثلما تأكل

اللحم وتتسلق الجدران

(لا تشرب من الوادي عكر ماءه الحسد يا ولدي .. ما كان لي أن أقول لك ذلك لو لم أر في العيون شراسة فهي تضمر فوق ما تظهر ، وتبطن غير ما تسفر ، وما كنت لأجود عليك بهذه

المنحة لو لم أكن أحمل لك مودة خالصة أعتقد في نفسي أنك تستحقها فأرجو أن لا تخيب ما كنا فيك نعتقد .)

- " من أنت يا عمي ؟ أنا لم أرك ، ولم أسمع صوتك العميق هذا في وادينا من قبل ؟! هل أنت أنسي يستأنس به أم أنك من أقوام أخرى لا قِبل لنا بها . "

لم ابرح حاجز الجسر ، وإن بدأ دبيب الخوف يتوغل عبر لحمي فيقشعر بدني ، ويشتعل نبض قلبي ، فقعد بي التفكير ، وظل عقلي يقلَب المسائل عند وجوهها المخيفة وحسب . وحتى بعد أن جاء العجوز الذابل الوجنتين المحروق الوجه من صهد الوهج العنيف ، الذي عهدت نفسي حتى وهي في رقة صفاءها أن أنسف رأسه المعتوه وأجعله وعاءً للذود وملاذاً للنمل الأبيض .. هذا

وهي في رقة صفاءها ، أما اليوم وهي في أوج قوتها ، وإن لم يتزحزح عني الرعب فأني أدعي القوة الآن لأخفي ما بي من خوف .. صه .

(لك عليَ اليوم حق ارتضيه من نفسي . شيء خصصتك بك وحدك ، أن أمنحك نصيحة ذهبية أخرى . فأنت لا زلت لم تدرك بعد أن ؛ ظمأ الروح أقسى واشد من ظمأ الأجساد .. أترك هذا المكان

الآن ، وإذا نشطت فاعتزل قبل الغروب .)

غروب ! هه . الآن . ما الذي يبقيني هنا ؟ الروح غالية يا حبيبي ، وإن كانوا يبدون ودودين .. وما شأني أنا بودهم .. أنتظر . من هذا الذي بانت هيئته مقبلاً يتلوى من بين أشجار البرتقال شاقا المزرعة من جهة الجنوب .. كان صفيره يهتك ستر الصمت الذي يهيمن هنا بشكل مخيف لهذا استبعدت أن يكون العجوز . لحظات ومر، لم أعرفه ، ولم يسلم ، كان وجهاً جديد غير مألوف لي على الأقل تلفظه هذه الأصقاع وما أكثر ما تلفظ ..

" هذا نذير شؤم لا يأتي وراءه خير . هل هو هذيان الريح في قعر الوادي؟ " (عليك أيها الرعديد إن أردت أن تُشفى من غليلك أن تأكل برتقالة من مزرعة الرومي . في تلك المزرعة بالذات نوع خطير يسمى (أبو صرة) وهو ليس النوع الذي يعرفه العامة ، لن

تنسي طعمه الفاخر ،ولن تشبع منه حتى تروي نهمك منه إلى أقصى حد من حدودك القصوى .)

" هه . مالي أنا وبرتقال الرومي ولو كان نوعه يبعث في حرارة الخلود و يطهر جسدي من رجس الشياطين . لن أبقى هنا لحظة أخرى . "

(لا تخاطبني أمام بشري بهذا اللون ..)

صعقت ؛ كأنهم يتخاصمون ! حتى هم ؟ أرى أنهم مثلنا عقول عصافير . سأرحل من هنا قبل استلال السيوف . قد أُصابُ بطعنة طائشة ، لا شك هم يخطئون مثلنا ، ومثلما يتخاصمون ..

أهذا هذيان !؟ أنه شجار قد يؤدي إلى اشتباك بالأيدي أو قد تستل السيوف من أغمادها ، وقد تمتشق البنادق ويشتعل البرود . لا يبدو لي هذا .. سيكون اشتباك من النوع القديم مثل الذي كان يحدث في الأزمنة الغابرة . كيف عرفت ؟ سألني خوفي ! شعرت أحسست . أجابني يرتعد . وسألني قائلاً والدهشة ترتعد : لما تبقيني هنا ومعشر الجن يحشدون سيوفهم ..

سأجمع شتاتي وأرحل ولن أبقى لمثل هذا لحظة أخرى قد تندلع فيها المعارك .. يعز عليَ أن أترك جسري وحده يلعب فيه هؤلاء ..

" يلعب !؟ "

" أنهم يتصارعون وقد يسفر صراعهم هذا عن تتناثر الدماء والأشلاء فوق بقعتنا الوديعة بعد برهة أراها ضئيلة وكأني أشمها .. ما بالك . همهمة مثل هذه قد يسمعونها ولو كانت في قعر جوفك أستتر وأكتم نوياك .. وإلا فالويل لنا . "

" أحقاً قد يغضبون .. "

" أصمت ولا تدعني أرى ظلك . "

لا حيلة لي مع جبروتهم . ثم ألم يقل كبيرهم أرحل قبل الغروب . ولكني فررت وذلك أقصي ما أستطيع ، انطلقت حثيثاً نحو الحافلة التي احتوتني ، ولم تبلغ الساعة منتصف النهار بعد .

اليوم مسيرة تجوب الشوارع ، والمعلمون رحلوا والمدارس أُغلقت ، والتلاميذ صاروا في البيوت الآن ، وها أنا سأمضي إلى البيت .

" ومن يصدق ما قلت ؟ "

" أمي تصدق . "

" وأبوك ؟ "

" أبي يلاحق رزقه ولا تهمه هذه القصص . "

في تلك الأيام الحلوة لأبد لك أن تسعى إلى مزيد من الشقاوة حتى تثبت للجميع أنك أنت هو الطفل المعجزة الذي يتحدثون عنه دون باقي الأطفال الآخرين المعتوهين والتافهين ذوي العقول

الخالية من أي موهبة ، لهذا فأنا وحدي من يحالفه الحظ دائماً بملاقاتك عند حائطي المحتشم ..

تأتي وحيداً في كل مرة تحمل عصاك مثل راهب يقف أمام باب صومعته وينظر إلى السماء لعلها تمطر اليوم ، بضع قطرات من الماء العذب تغسل بها وجهك الذي تغضن وأكلت منه التجاعيد سنين طويلة في برية موحشة ، ها هو يجلس بجانبي ويحاول أن يقص عليَ من حكايات الشتاء الدافئة عن مدينتنا عن أجدادنا الذين غرسوا فينا نخيل أرضنا وصخور جبالنا والدروب والحقول والطين الذي منه جبلنا .

في مساء ذلك اليوم بالذات كانت المباراة حامية الوطيس ، وكاد الشجار يحتدم من جرأ هدف مشكوك في صحته ، عندما اهتز الوادي بهدير مدوي وكان ذلك عند اختفاء القرص الأحمر وراء أشجار النخيل السامقة بجوار الكثبان المترامية خلف المزارع الخضراء حيث تبدأ الغابة الجسور .. تجمدت أجسادنا للدوي المرعب ، وبحلقت منا العيون في الاتجاهات الستة بدناها بأمنا الأرض

وانتهت إلى عمتنا السماء .. غشاوة بيضاء ثخينة وباردة طمست علينا العقل والعين والنبض الجسيم ، وعجز غريب سربل أقدامنا فتسمرت فوق الرمال كأنها أنصاف تماثيل حجرية ، وفي مثل لمح البصر أسفرت عن زوبعة من عجاج مثير يجر خلفه السيل ، ولحسن الحظ تخلصت أقدامنا من حصار العجز فطارت كأنها عقبان حيث النجاة باتجاه الرصيف المائل وباتجاه الضفتين ..

ـ « الرصيف المائل للجسر . »

ذاك حائط ينحدر انحداراً شديداً حتى قاعه الصلد المدفون تحت طبقة شديدة السماكة من الزلط والإسمنت الخشن .. ذاك مائل يا جاهل يمنع الانجراف ويقوّي كتلة الجسر الذي تربيت فوق حصاه ..

ـ « أما تذكر ؟ »

رحلت بي الذاكرة المنحدرة الانحدار الشديد نفسه نحو الشيخوخة المبكرة .. هل هي مبكرة فعلاً أم هو ضرب من اجترار الأماني ؟ أيه أنا الذي يذكر ! وكيف لا أذكر ؟ حتى لحمي ..لحمي هذا شرب من نسيم الوادي ، وغرق في الطل ، وأكل من حصى الجدران ، وتمرغ مثل ضفدع فوق ترابه المبلول . دمي ودموعي وعرق الجبين كلها سالت وهطلت واختلطت بزفت الطريق وبتراب الوادي وبماء السيل وبغبار الطلع ..

أقتحم الجسر القائم على حائطين عمودين من الاسمنت الصلد يرتكز عليهما لكل عمود حائطين مائلين إلى جوره يسندانه ويمنعان انجرف التربة من الضفتين . هل تود أن اشرح لك كيف بنوه ومن

بناه ومتى ؟؟ ودون مقابل أذكرك به ، وأذكر به نفسي التي أبدعت في شرحها .

- "حسناً الحائط المائل للجسر البغيض تصدع تحت ضربات السيل .

- " ما كنت أدري أنك تكره الجسر الذي وصفته بالحبيب مرات ومرات حتى تصفه بالبغيض في هذه المرة . ما بلك أبعد { اللّه} عنا وعنك البغض .. "

نكست رأسي . نكسته خجلاً . وابتلعت ريقي المر . أحسست بقامتي تقلصت ، وأنحني ظهري لما وصفته .. ما كان غير النكران .. فرت دمعة ثقيلة من عيني لما وصفت جسري الحبيب بغير ما أحب بغير ما اضمر له في كياني كله من مودة ، من ذكرى لم يمسسها النسيان حتى مع الغفلة المضنية التي ساقها القدر ورسَخها الوجع فكان الاستياء وكان الغضب ، وقع العقل من هول ذلك في الزلل ..

- " ذاك السيل اللعين جرف الكرة الوحيدة التي نملك ؛ ألا تعلم بأنه تركنا كالأيتام ؟ "

- " لقد ترككم أنتم ، وهذا في رأيي هو المهم . "

- " بل أنه كاد أن يفعلها ، عندما اجتث من تراب الضفة أحد أفراد عصبتنا .. "

- " ومن هذا المحظوظ الذي هدهده السيل على جناحه . "

- " فتحي ! "

- " الدكتور ؟! "

- " كاد أن يجرفه مع الكرة التي كان يكرهها وتكرهه . "

- " ود متبادل كان بينهما كنت أعرف ، على مر التاريخ الفضي للجماعة ، ثم ها هو يجمعهما قدر مشترك . أليس هذا عجيب ؟! "

- " جمعهما ، هذه مفارقة . صحيح ، جمعهما السيل إذ حاول أن يأخذهما معاً .. حمل الكرة في عبه ، وخطف فتحي ثم أطاح به بين أنياب الشرخ الرهيب الذي أحدثه جبروت السيل في الحائط المائل للجسر المنكوب . "

- " ألم يبتلعه الشرخ . "

- " بل أنقده من موت محقق . "

- " هذه معجزة ! "

- " بكل المقاييس أجل . فقط لو أنك رأيت الهوة التي كانت بين الحائط الخراساني المائل للجسر والضفة الملاصقة له ، كانت أشبه بفوهة بركان ، لولا أن ذاك يقذف الحمم ، وهذا يبتلع الطمي

وما يجرفه السيل . وعندما انتشلنا جسده من فوهة الجحيم ، كان كالسمكة ينتفض مثل خرقة بالية في المهب العنيف عند خروجها من الماء ، مغطى بترابها وقشها وطمي أسود ...حتى لا يبدو منه شيء ؛ عندما أخرجناه كان مثل كتلة ثقيلة من الطين المبلول ، قمنا بتغطيسه في الماء الذي جرف الطمي فظهر جلده يرتعد ... "

كان بين الضفة والقاع يجلس عند السفح تحت شجرة خروع صغيرة ووحيدة شاردة عن باقي الأشجار التي تحاصر القاع عند السفح المجنح .. كنا نلعب ، وكان هو يقذفنا بالطوب مرة ثم يشرد

بعيداً ، ويرسم فوق وجه الترب بعود ؛ عمائر يحلم بامتلاكها ، ووجوه يريد أن يلقاها ، وسيارات يود اقتناءها ، ومزارع كي يزرعها بطاطس وفلفل حلو .. ثم يشرد مرة أخرى ، كأنما هو يخط في عقله ما رسمه فوق الرمال . ويظل على هذه الحال حتى بعد غروب الشمس ، ننتهي نحن من الكرة وتنتهي هي منا ، فنرحل متعبين ، وقد نسينا فتحي الغارق في أحلامه

وحفرته .. تذكرت الآن أن فتحي هو من أغتال الكلب الذي هجم عليه ذات ليلة بينما هو في ملاذه بالحفرة اللعينة . كنا نسيناه كالعادة .. كانت معجزة ؛ أن حجر صغير يفتك بكلب كبير مثل الضبع ..

ولول ذاك الحجر الصغير لكان الكلب تعشى بفتحي ، ومسح فمه بقميصه المشجر .. ولكن عمر الإنسان كان أطول من عمر الحيوان .. نجي فتحي ومات الكلب .

" أيكون ما جرى عقاب له على قتل الكلب ؟ وقد يكون الكلب ليس كلباً في الحقيقة ... "

لقد نجا مرتين في صيف هذه السنة وشتائها ، وفي المرتين أقام لنا حفلة . مرة في (البرعي) ومرة في دكانهم في (باب الحرية) ..

- " يلكم من محظوظين ! "

- " نحن ؛ أجل كنا كذلك ، لكن الحظ لا يدم طويلاً . "

صدقوني كانت تلك أيام رائعة .. رائعة ....

فقدناها .. وفقدناها إلى الأبد .

المحتويات

قصص

شلة الصعاليك

الموضوع	الصفحة
الإهداء .	5
المطلع .	7
1 ـ الوادي .	9
2 ـ ظل ظليل.	24
3 ـ فتي الرمال .	34
4 ـ بنت إبليس .	47
5 ـ الرنين .	59
6 ـ التحدي .	73
7 ـ الميدان .	90
8 ـ جولة الصعاليك .	102
9 ـ الغفير أبو الليل .	117
10ـ الطريد .	133
11 ـ أبن بطوطة.	147
12 ـ السيل .	161

كان لابد لي أن أكتب هذه المقدمة البسيطة التي لا تقول غير أشياء خاصة هي ملاذ لأصحابها عبر سنوات دافئة من أطوارهم الأولى لا تقصد أحداً ولا تختلق شيئاً غريباً وليس في نيتها إلا أن تكون بسيطة ووديعة مثل أورق العنب أو أغصان شجر اليمون والوان ثمرة البرتقال لا أكثر من ذلك ولا اقل عبر سماحة لا يعكر صفوها التملق ، وهي تتباهى بنفسها أحيانا لأنها تكاد أن تكون قريبة الشبه بكل طفولات الآخرين لأننا من نفس البيئة ولنا نفس الراغبات التي تمتشق بالأمل سلماً من ياسمين ، هي هي تقريباً ، كما وفينا نفس الحنين ؛ هو ذاته الذي ولد من تراب الأرض التي ترعرعنا فيها وبها ، عشقناها وأحببناها كلنا بسمائها وضياءها ومياهها وشمسها وظلها وظلالها وبردها وحرها وبحرها .. بنهارها وليلها ووردها وشوكها والشجن الذي يملأ أفئدتنا حباً لتقاليدنا وماضينا وعاداتنا الباسمة والرضى الذي يبلسم القلوب قناعة وامتنانا ..

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE